بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾

بقلم

نلجية المروكي بن الشيخ

المركز العربي الحديث

١٠٢ شارع الإمام علي ميدان الإسماعيلية مصر الجديدة.

القاهرة تليفاكس : 26377603

إهداء

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 156- 157].

إلى خير خلق الله، وأحب الناس إلى الله عز وجل، إلى من بعثه الله رحمة للعالمين فجاءهم بالرحمة والرأفة بشيرًا ونذيرًا، وعلمهم الكتاب والحكمة ليزكيهم ويطهرهم من أدران الجاهلية والشرك.

إلى من أدَّى الرسالة على أحسن وجه، وبذل من أجلها الغالي والنفيس، ويسَّر و لم يُعسِّر، ونصح وبالغ في النصيحة، وأتى بالهداية فكان خير هادٍ، وحرص على هداية قومه حتى قال له ربه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: 56] وقال له: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3].

إلى من أتى بالحجة البيضاء وبالحجة الصحيحة فأنقذ من الضلال وبصر من العمى ورفع الغشاوة عن الأبصار وفتح القلوب المغلقة فأنارها بالإيمان، ونهى عن التعسير والتنفير، ودعا إلى التيسير والتبشير، وأنقذ البشرية من ظلام الشرك والجهل، وقادها إلى نور الإيمان وضوء المعرفة، ودعاها إلى الفلاح، ودلَّها إلى سبيل النجاح

امتثالاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108].

إليك يا أبا القاسم، يا من أنرت لنا الصراط المستقيم، وكنت خير أسوة للدعاة والمرشدين والأئمّة والوعّاظ والحكّام والقضاة والساسة والمحاربين والقادة والجنود والمعاهدين والعلماء والمصلحين والعابدين والزاهدين حتى قال فيك ربك: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

إليك يا سيدي يا أبا القاسم أهدي هذه السطور المتواضعة، مشاركة مني لنصرتك ونصرة دينك؛ لعلي أجدها في ميزان حسناتي، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

ناجية المروكي بن الشيخ

- السلام عليكم يا أبي.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أراك يا أحمد جاهزًا للخروج، إلى أين؟

- إلى المكتبة العمومية، وسألتقي أصدقائي أوّاب وزياد لنطالع بعض الصحف والمجلات.

- حسنًا، لا تتأخر عن موعد الغداء.

- إن شاء الله لن أتأخر.

- السلام عليكم، هل تأخرتُ عليكما؟

- لا يا أحمد، نحن قدمنا الآن، لقد كان أوّاب في زيارة جدّته، وذلك ما جعلني أنتظره بالبيت حتى تأخرنا كما ترى.

- لا بأس، هيا ندخل قبل أن تكتظ المكتبة فلا نجد مكانًا نجلس فيه للمطالعة، فاليوم يوم عطلة، هيا!

- أحمد، زياد، لقد أتيتكما ببعض الصحف تحمل عناوين مهمة جدًّا تتحدث عن قضية الساعة بالنسبة لنا كمسلمين.

- لعلك تقصد الحديث عن الرسوم المسيئة للرسول ﷺ.

– نعم يا زياد، جلُّ الصحف هذه الأيام تتكلم عن هؤلاء الحاقدين المتعصبين الذين أساءوا بكتاباتهم ورسومهم إلى المصطفى المختار ﷺ.

– عليه الصلاة والسلام، أليس الواجب يدعونا للرد عليهم بكل قوة يا أحمد؟

– صدقت يا أوّاب، هذا رأيي، لا يجب السكوت عليهم، إنهم والله يستحقون أن تُقطع أيديهم وألسنتهم، وأن تحكم عليهم البلدان الإسلامية بالإعدام ولو حكمًا صوريًّا.

– لا يا زياد، لا يكون الرد هكذا؛ فمثل هذا يجعل أعداء الإسلام يتعاطفون معهم ويجعلون منهم أبطالاً فتزداد شهرتهم، كما كان لذلك الشيطان «سلمان رشدي»؛ فيُذاع صيتهم وتكثر أنصارهم.

– صدقت يا أوّاب، فالرد لا يكون بالعنف، بل كما فعلت بعض الدول الإسلامية حين ردَّت على المتعصبين الحاقدين بالكتابة في الصحف والمجلات، وبالحديث في وسائل الإعلام السمعية والمرئية عن سير رسول الله ﷺ وأخلاقه وشمائله.

– أحسنت يا أحمد، هكذا يكون الرد.

– كذلك يا أوّاب يجب أن يكون الرد موحدًا؛ حتى يكفَّ كلُّ من تحدِّثه نفسه بالإساءة إلى المسلمين من خلال التعدِّي على مقدساتهم.

– يا زياد، هناك ردٌّ آخر يكون فيه ردع لدور النشر التي تشجِّعهم وتنشر لهم بعض المقالات والرسوم، وهذا الرد يكون على مستوى الشعوب والحكومات كما

حدث في بعض البلدان الإسلامية، وهو المقاطعة الاقتصادية، أي عدم شراء البضائع التي تصنعها وتصدِّرها الدول التي ينتمي إليها هؤلاء المتعصبون.

- فهمت يا أوَّاب، وبذلك تتأثر المؤسسات الاقتصادية فتتدخل حكوماتهم وتمنع نشر ما أملته عليهم شياطينهم.

- هذا هو الرأي الصائب، يجب أن يكون الرد بالأقلام وبجميع اللغات حتى تعرف شعوب العالم من هو محمد نبي المسلمين صلّى الله عليه وسلّم، وما هي رسالته الخالدة التي بُعث بها للعالمين، ثم بالمقاطعة الاقتصادية حتى يتضرَّر اقتصاد كلّ دولة تسمح بالإساءة إلى المسلمين من خلال السخرية من مقدساتهم.

- أريد أن أضيف إلى هذا أمرًا أعظم ربما مما ذكرنا، وهو ما أرشدنا إليه نبيُّنا محمد ﷺ، هذا الأمر العظيم هو حمل هذه الرسالة التي بُعث بها وحملها قولاً وفعلاً كما حمَّلها هو صحابته ومَن بعدهم من التابعين، ومن أجلها ضحُّوا بالغالي والنفيس، وأنفقوا في سبيل تبليغها الأموال والأنفس؛ فبلَّغوها كما أمرهم الله ورسوله حتى ملكوا بها الأقطار والأمصار؛ فأعانتهم على بناء حضارة تحاكي الأزمان؛ فقادوا الأمم ورفعوا الهمم.

- وبذلك يا أحمد يعود المسلمون كما كانوا أسياد العالم؛ فيرفعوا عن البشرية الظلم والهوان، وبهذا تنكسر شوكة المتعصبين الحاقدين أعداء الإنسانية وأنصار العنصرية، وتكون حقيقة الضربة الموجعة لهم ولمن يشجعهم.

- أحسنت يا أوَّاب، لقد فهمتَ ما أقصده.

- وكيف يكون هذا يا أحمد؟

– يا زياد، هذا يكون بإصلاح الفرد المسلم فالأسرة المسلمة، وبالتالي المجتمع المسلم؛ فلا يصلح آخِر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

– حسب رأيك كيف يكون هذا الإصلاح؟

– أحييك أنا قبل أن يجيبك أحمد يا زياد، حسب ما سمعته من بعض العلماء في القنوات الإسلامية يبدأ الإصلاح بما بدأ به الوحي المنزل على رسول الله ﷺ وهو: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1– 5]، فبتعلُّم العلم ونشره يبدأ الإصلاح وفي مقدمته العلم بهذه الرسالة الخالدة لأنها هي التي تدعونا إلى الأخذ بكل العلوم النافعة والعمل الصالح الذي سيفيد الإنسان ويرفع من مستواه المادي والمعنوي.

– كما قلت يا أوّاب فرسول الله ﷺ الذي أُنزلت عليه هذه الآيات الخالدة العظيمة، ترجمها بأفعاله وأقواله، فكان يدفع أصحابه إلى طلب العلم دفعًا، ويحثُّهم على ذلك، ويشجِّعهم بكلّ ما أوتي من حكمة؛ حتى جعل طلب العلم من الجهاد في سبيل الله فقال: «**من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع**» (رواه الترمذي).

– ليس هناك على ما أعلم شريعة ولا قانون في الأرض دعت إلى طلب العلم وشجعت على ذلك كما فعل الإسلام، والدين الذي بُعث الله به محمد ﷺ، وهو القائل: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**» (رواه ابن ماجة)، وكما قال ﷺ: «**لن يشبع المؤمن من خير سمعه حتى يكون منتهاه الجنة**» (رواه الترمذي).

– بل يا جماعة جعل الطريق إلى العلم يسهل الطريق إلى الجنة فقال: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهّل الله له طريقًا إلى الجنة**» (رواه مسلم).

– الله أكبر، ما أعظمه صلّى الله عليه وسلّم! أفمَن كان كلامه هـذا يكون عرضةً للسخرية والشتم؟! سخر الله منهم الحاقدون؛ فهو صلّى الله عليه وسلّم يجعل طلب العلم جهادًا في سبيل الله، ويجعله سببًا يسهل الطريق إلى الجنة، ويصف المؤمن بأنه لا يشبع من سماع العلم حتى يدخل الجنة، نفهم من هذا أنه يجعل طلب العلم عبادة؟

– نعم يا زياد، طلب العلم في شريعة محمد ﷺ عبادة، وهل تكون العبادات صحيحة إلا بالعلم ثم العمل أي العبادة، وهنا نراه صلّى الله عليه وسلّم يقول: «**نضر الله امرأ سمع منا شيئًا فبلّغه كما سمع فرب مبلغ أوعى من سامع**» (رواه الترمذي).

وهكذا يدعو لمن سمع منه شيئًا من الوحي، ثم يُعلمه إلى غيره فيعمل به هذا الأخير، وفي هذا تشجيع على نقل العلم ونشره في الناس.

– فهمت، فالدفاع عن رسول الله ﷺ هو حينما نتعلم العلم كما نتعلم وننشر ما نتعلمه في مجتمعاتنا، فنرجع كما كنا في عهده وعهد أصحابه وتابعيهم أمة العلم والعلماء، لا أمة نسبة الأمية فيها أعلى نسبة في العالم.

– نعم يا زياد، فرسول الله ﷺ قال في العلماء: «**العلماء مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء وورثتي وورثة الأنبياء**» (رواه أبو يعلى)، كيف لا وقد أنزل الله عليه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9]، وأنزل عليه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]، وقال له تعالى: ﴿يَرْفَعِ

﴿اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11]، ولا يكون الإنسان عالمًا إلا إذا عمل بما علم.

– ثم هل صلى الله عليه وسلم يا أحمد يجعل الدنيا بدون علماء وطالبي علم وبدون ذكر ملعونة بعيدة من رحمة الله، فيقول صلّى الله عليه وسلّم: **«الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالمًا أو متعلمًا»** (رواه الترمذي وابن ماجة).

– وقد طبّق صلّى الله عليه وسلّم كلّ ما كان يقوله على واقع الأرض، حتى إنه جعل فكاك الأسير في حرب بدر تعليم عشر من أبناء الصحابة القراءة والكتابة، انظروا كيف قدّم العلم على المال في وقت كانت فيه الجماعة المسلمة في أشد حاجة إلى المال.

وهو صلّى الله عليه وسلّم أول من دعا إلى تعليم الكهول الذي تدعو إليه المنظمات العالمية اليوم فقال: **«اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»** (رواه الترمذي وابن ماجة).

– إذن فدروس تعليم الكبار كانت على عهد رسول الله ﷺ يا أحمد؟

– وهو كذلك يا إياد، كان العرب أميون والقراءة والكتابة نادرة جدًّا عندهم؛ فجاءهم رسول الله ﷺ بالإسلام من عند الله يدعوهم إلى العلم، ويشجعهم حتى أصبحوا علماء، بل حثهم على أن يعملوا بما علموا ويتقنوا العمل.

– فيما يخصُّ العلم فحدِّث ولا حرج؛ فالأمة الإسلامية أمة تحب العمل الصالح وتدعو إليه، وهذا مما جاء به رسول الله ﷺ، فهو يشجّع على العمل الصالح ويدعو إليه، وذلك في جميع الميادين وهو القائل: **«خير الناس من طال عمره وحسن عمله»**

(رواه الترمذي)، ولعلّكم تظنون أن العمل يقصد به صلّى الله عليه وسلّم: «**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده وأن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده**» (رواه البخاري)، وقال صلّى الله عليه وسلّم: «**من بات كالًّا على عياله بات مغفورًا له**» (رواه الطبراني)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال صلّى الله عليه وسلّم: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله**» وأحسبه قال: «**كالقائم الذي لا يفتر والصائم الذي لا يفطر**» (رواه البخاري ومسلم).

- نعم يا أحمد، لقد قال صلّى الله عليه وسلّم كذلك: «**لئن يحتطب أحدكم حزمةً على ظهره خيرٌ له من أن يسأل الناس أحدا فيعطيه أو يمنعه**» (رواه مسلم).

انظروا كيف شجّع محمد ﷺ أفراد أمته على العمل ليقضي على البطالة، وليمنع أفرادها من التسوُّل في الشوارع.

- وهو كذلك يا أوّاب؛ فهو صلّى الله عليه وسلّم يقول: «**اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى**» (رواه البخاري)، فيجعل الإنسان الذي يعطي خيرًا من الذي يأخذ كي يستنكف المؤمن من التسوُّل، بل تراه يحذر من السؤال، ويخبر أن من يسأل الناس وهو غير محتاج يأتي يوم القيامة ولحم وجهه يتساقط عقابًا له، وفي الحديث قال صلّى الله عليه وسلّم: «**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مزعة من لحم**» (متفق عليه)، وبالتالي لا يكون التسوُّل حرفة كما أصبح اليوم في بعض المجتمعات الإسلامية، وقد قال صلّى الله عليه وسلّم: «**من سأل الناس تكثُّرًا فإنما يسأل جمرًا؛ فليستقل أو ليستكثر**» (رواه مسلم)، وهذا منتهى التحذير من السؤال.

– سبحان الله، لقد تفشّى التسوُّل في البلدان الإسلامية، فالطرقات لا تخلو من المتسوِّلين، وهذا دليلٌ آخر على تخلّي المسلمين عن تطبيق ما جاء به رسول الله ﷺ وبُعدهم عن دينهم وشريعتهم.

– وهو كذلك يا زياد، فرسول الله ﷺ شجَّع على العمل في جميع الميادين حتى لا يتفشى الفقر والبطالة في أمته؛ فيقول صلّى الله عليه وسلّم: **«لا يغرس مسلم غرسًا ولا يزرع زرعًا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة»** (رواه البخاري)، فهذا الحديث مع أنه تشجيع على العمل الزراعي فهو سبقٌ لكلّ المنظمات العالمية التي دعت إلى مقاومة التصحُّر وحماية البيئة بغرس الأشجار والنبات.

– أضيف إلى ما قلت يا أحمد قول رسول الله ﷺ حينما سأله أحد الصحابة: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: **«إيمان بالله والجهاد في سبيله»**، قال: أي الرقاب أفضل؟ قال: **«أنفَسها عند أهلها (أكثرها ثمنًا)»** قال: قلت فإن لم أفعل؟ قال: **«تعين صانعًا أو تصنع لأخرق»**، قلت: يا رسول الله، أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: **«تكف شرَّك عن الناس؛ فإنها صدقة منك على نفسك»** (متفق عليه).

– الله أكبر! ما أعظمك يا رسول الله ﷺ! والله يا جماعة لو طبَّق المسلمون أقواله صلّى الله عليه وسلّم لأصبحوا كما كان أسلافهم صحابته رضي الله عنهم، خير أمّة أُخرجت للناس.

– نعم يا زياد، لقد كانت شهادة الله سبحانه وتعالى في محمد ﷺ ومن تبع سُنته وهداه وعمل بما جاء في القرآن وبوصاياه صلّى الله عليه وسلّم إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، هذا هو محمد ﷺ، فمن

أفضل الأعمال في شريعته الصناعة للأحرق وإعانة الصانع، وكفُّ الشر عن الناس صدقة، هل مَن تكون هذه وصاياه لأمته يُتطاول عليه ويُستهزأ به؟! اللهم لا! لا يصدر هذا إلا من حاقدٍ متعصِّبٍ عدوٍّ للإنسانية.

- والأكثر من هذا فرسول الله الإسلام لم يوصِ بالإحسان للإنسان فقط، بل أوصى بالإحسان حتى للحيوان، وكان سباقًا لجمعيات الرفق بالحيوان التي ظهرت في العصور المتأخرة، يقول صلّى الله عليه وسلّم: «**إنَّ الله كتب الإحسان على كلّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته ولْيرح ذبيحته**» (رواه مسلم).

- حتى الحيوان الذي تريد ذبحه للأكل أو للبيع يا أوّاب؟

- نعم يا زياد، بل أوصى كثيرًا بهذه البهائم التي تعيش معنا، وتوعد من يعذبها بالعذاب في النار؛ فقال رسول الله ﷺ: «**عُذِّبت امرأة في هرّة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها، إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**» (متفق عليه)، كما حكى صلّى الله عليه وسلّم عن رجل يسقي الكلب العطشان فشكر الله له فغفر له، فقال له الصحابة: يا رسول الله، أنا لنا في البهائم أجرًا؟ فقال: «**في كلّ ذات كبدٍ رطبةٍ أجر**» (رواه البخاري).

- فإذا كانت هذه وصيته بالحيوان ورأفته به في هذا المستوى الذي لم يسبقه إليه أحد، فما بالك بوصاياه بالإنسان الذي كرَّمه الله على جميع مخلوقاته!

- أحدثك يا زياد بما سمعته من أبي في هذا الموضوع؛ فرسول الله ﷺ يقول: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه**» (رواه البخاري)، فيجعل كمال الإيمان أن يحب المؤمن الخير لأخيه المؤمن كما يحبه لنفسه، ثم يوضح هذا السلوك

فيقول: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربةً فرّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة» (متفق عليه).

- لقد قرأت في بعض كتب السيرة يا أحمد أنه بايع الصحابة على نفع المسلمين بعضهم لبعض، يقول أحد الصحابة: «بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكلّ مسلم» (أخرجه البخاري ومسلم)، انظروا كيف يقرن النصيحة للمسلم في البيعة مع أعظم العبادات في الإسلام، ألا وهي الصلاة والزكاة! كما أكد على التآخي بين المسلمين والتآزر والتعاون على البر والتقوى، بل وضع الأحكام والتشريعات لذلك، وأوصى أفراد الأمة بأن يكونوا كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضًا، ومثل المؤمنين كالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وأوصى بأن يكون التعامل بين الناس بالمعروف في كلّ الميادين، حتى قال صلّى الله عليه وسلّم: «لا تحقرنّ من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» (رواه مسلم).

- والله يا أوّاب ليس هناك ميدان من الميادين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إلا وترك فيها رسول الله ﷺ أحكامًا وتشريعات ووصايا لأمته، لو طبقها المسلمون اليوم لأصبحوا سادة العالم، ولأنقذوا البشرية من الشقاء والضياع والظلم الذي هي فيه رغم التقدم المادي والتكنولوجي.

- لذلك يا زياد نحن نقول إن نصرة رسول الله ﷺ وحبّنا له والدفاع عنه لا يكون حقيقيًا إلا إذا رجعنا إلى تطبيق كلّ ما جاءنا به صلّى الله عليه وسلّم من أحكام وشرائع وتوصيات، فإذا ما طبقنا كلّ ذلك في سلوكنا ومعاملاتنا وحياتنا نكون قد نصرنا دينه وبالتالي نصرناه وانتصرنا على الظلمة الفجرة أعداء الإنسانية،

ونخلّصنا العالم من الشقاء والظلم وانتشار الظَلَمة للمفسدون في الأرض، يقول أبو بكر رضي الله عنه: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه**» (أخرجه الترمذي والنسائي)، وهـا هـو العقاب عمَّ العالم بانتشار الظَلَمة وعدم الأخذ على أيديهم.

– نعم يا أحمد، فنبيُّ الله ﷺ يقول كذلك: «**إذا هابت أمتي أن تقول للظالم يـا ظالم فقد تودع منهم**» (رواه الحاكم)، ويقول: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًـا**» فقـال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أرأيت إن كان ظالمًا، كيـف أنصـره؟ قال صلّى الله عليه وسلّم: «**تحجزه (أو تمنعه) من الظلم؛ فـإن ذلـك نصـره**» (رواه مسلم)، فالمسلم لا يكون ظالمًا ولا يسكت عن الظلم، وأكبر ظلـم هـو السـخرية بالمقدسات والاستهزاء بدين الله ورُسله.

– وخاصة ديننا الذي اعترف بكلّ الأديان التي سبقته، ورسـولنا ﷺ الـذي أوصى بالإيمان بكلّ الرسل الذين جاءوا قبله.

– هو كذلك يا زياد، والله يا جماعة لو أردنا أن نسرد كلّ ما أوصى به رسول الله ﷺ أُمّته وشرعه لها ما استطعنا ذلك لمعرفتنا المحدودة بالقرآن والسُنة، وعدم إلمامنا بالشريعة الإسلامية، فلو أخذنا العبادات التي شرعها الإسلام وقال عنها صلّى الله عليه وسلّم إنها أركان الإسلام لوجدها تمارين لتعويد المسلم على الأخلاق الفاضلة والسلوك القويم، فمَن واظب عليها عاش معافًى في بدنه سالمًا في حياته طيب الـنفس مطمـئن القلب، فالصلاة مثلاً تنهى عن الفحشاء والمنكر، يقول صلّى الله عليه وسـلّم فيمـا يرويه عن ربّه: «**إنما أتقبّل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي ولم يستكبر بها على خلقي ولم يبت مصرًا على معصيتي وقطع النهار في ذِكري ورحم المسكين وابن السبيل والأرملـة**

ورحم المصاب» (رواه البخاري ومسلم)، انظروا إلى هذه الأخلاق العظيمة التي يجب على المصلّي التحلّي بها حتى تُقبل صلاته، ومن الذي لا يحب أن تُقبل صلاته؟

أما بالنسبة للصوم فأنا أذكر حديثًا يقول فيه صلّى الله عليه وسلّم: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» (رواه البخاري).

– أضيف حديثًا آخر لما قاله أوّاب، يقول صلّى الله عليه وسلّم: «ليس الصيام من الأكل والشرب، وإنما الصيام من اللغو والرفث، فإن سابّك أحدٌ أو جهل عليك فقل إني صائم» (رواه البخاري ومسلم).

– وبالنسبة للزكاة يا زياد يقول سبحانه وتعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: 103]، وبذلك يجعل سبحانه الحكمة الأولى من الزكاة تنظيف النفس من الأخلاق الذميمة كالبخل والشح؛ فتكون الزكاة والصدقة الغاية منها التحلّي بالرأفة والحنان على الفقراء والمحتاجين، والتكافل الاجتماعي بين الأغنياء والفقراء.

– يا أحمد، نرى رسول الله ﷺ يذكر أشياء أخرى يستطيع المسلم أن يقوم بها فتُكتب له بها صدقات حتى يستطيع كلُّ فردٍ من أفراد الأمة أن يبذل ويعطي، كلٌّ حسب طاقته، حتى لا يقول أحد لا أملك ما أتصدق به، يقول صلّى الله عليه وسلّم: «تبسُّمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل رديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة» (رواه الترمذي).

- سبحان الله يا أوّاب، هذا تشجيع على التحلّي بالأخلاق العظيمة والسموّ بالإنسان إلى درجة رفيعة، فيصبح طلق المحيّا، ناشرًا للخير، دليلاً لكلّ من يحتاج إليه، محافظًا على نظافة البيئة والمحيط الذي يعيش فيه، معينًا لكلّ صاحب حاجة حتى لكفيف البصر؛ ولهذا كانت أمة محمد ﷺ سباقة لكلّ الجمعيات الخيرية التي نراها في العالم اليوم.

- نعم يا زياد، أقول لك أنا قول الله سبحانه وتعالى في ركن الحج: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 197].

ويضيف صلّى الله عليه وسلّم فيقول: «من حجّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» (رواه البخاري)، هذا هو الدين الذي جاء به محمد ﷺ من عند ربه، يجعل العبادات رغم أنها تختلف في جوهرها ومظهرها ولكن الغاية منها واحدة، وهي سمو الأخلاق والسلوك الحسن والطبيعة الكريمة، حتى إنه صلّى الله عليه وسلّم يقول: «إنّ المسلم المسدد ليدرك درجة الصوام القوام بآيات الله بحسن خلقه وكرم طبيعته» (رواه أحمد)، و"المسدّد" هو المقتصد في العبادة، لذلك يا جماعة قلت لكما إن حبّ الرسول ﷺ ونصرته والانتقام من أعدائه وأعداء دينه المتعصبين الحاقدين لا يكون إلا بالاقتداء به والعمل بما جاء به من قرآن وسنة، واتخاذه أسوة حسنة؛ لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

– صدقت يا أحمد، فالمعروف من شمائله ﷺ أنه كان شجاعًا، لا يتقاعس عن حقٍّ أبدًا، كريمًا لا يبخل بشيءٍ أبدًا، صدوقًا لا يكذب حتى وإن كان يمزح، أمينًا حتى قبل بعثته، عادلاً لا يظلم في حُكمه، وكان طلق الوجه، لا عبوسًا ولا فظًّا غليظ القلب، قال فيه ربه تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159]، كما كان ليِّن الطبع سهلاً، لا فاحشًا ولا متفحِّشًا، وكان متواضعًا، يسلِّم على الصبيان ويداعبهم إذا لقيهم في الطريق، وإذا كان في بيته يكون في مهنة أهله حتى يخرج إلى الصلاة، هذا ما شهدت به السيدة عائشة رضي الله عنها، ولقد قالت عنه كذلك: **«ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيءٍ قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم، وما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده ولا امرأة ولا خادمًا»** (رواه البخاري ومسلم).

– على ذكر هذا يا أوَّاب قال أحد الصحابة: كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع (إحدى الغزوات)، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ، فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلق بالشجرة فاخترطه؛ فقال: تخافني؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا»، قال: من يمنعك مني؟ قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «الله»؛ فسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله ﷺ فقال: «من يمنعك مني؟»، قال: «كن خير آخذ» فقال صلَّى الله عليه وسلَّم: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله»؟ قال: لا، ولكني أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع من يقاتلونك؛ فخلى رسول الله ﷺ سبيله؛ فأتى أصحابه فقال: جئت من عند خير الناس.

– الله أكبر، ما أعظمك يا رسول الله! انظروا يا حاقدون يا متعصبون إلى هذا الكرم وهذه الشهامة وهذا العفو، وهذا الموقف مع مشركٍ جاء ليقتله!

– أضيف إلى ما قاله أحمد، لقد كان يمازح أصحابه ويجاريهم، ويجيب دعوة الحر والعبد والمسكين، ويعود المرضى حتى مرضى غير المسلمين، لقد رُوي عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض؛ فأتاه النبي ﷺ يعوده؛ فقعد عند رأسه فقال له: «أسلم»، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال: أطع أبا القاسم؛ فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**» (رواه البخاري)، هذا هو سلوكه مع من خالطهم من اليهود تواضعًا ورحمةً وشفقة، حتى إنه يعود مريضهم ثم يدعوه إلى الإسلام رحمة منه وشفقة عليه من النار، ويشكر الله ويحمده على إنقاذه من النار، أهذا يستحق منكم السخرية يا معشر اليهود؟

– تذكرت موقفه مع بعض النصارى، لقد روي عنه أنه لما جاء وفد النجاشي قام صلّى الله عليه وسلّم يخدمهم، فقال له أصحابه: نكفيك؛ فقال: «**إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإني أحب أن أكافئهم**» (رواه مسلم)، هذا هو رسولنا الكريم الذي أكرمه الله وأعلى ذكره وشأنه وشهد في خلقه فقال له: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: 4]، هذا هو محمد بن عبد الله ﷺ الذي أمرنا الله أن نتأسّى به، بل هو الأسوة الحسنة للبشرية قاطبة.

– إذن وجب علينا أن نتأسى به، فنصلح ما فسد من أخلاقنا وسلوكنا في جميع الميادين حتى يصلح الله حالنا ويمكّن لنا في الأرض كما مكّن لسلفنا الصالح، وهو سبحانه وتعالى القائل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: 11].

وبذلك نكون نصرنا رسولنا ودينا وانتصرنا على شياطين الإنس والجن الحاقدين المتعصبين.

«من آذى ذميًّا فأنا خصمه»

- السلام عليكم ورحمة الله.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ما لك يا أبي تأخرت عن موعد العشاء؟ هل أنت بخير؟

- الحمد لله يا رقية، أنا بخير، ولا داعي للقلق، هيا ندخل، وسأخبركم ما الذي أخرني.

- أبي، لقد أزعجنا تأخرك، من عادتك أن تصلّي العشاء جماعة بالمسجد ثم تعود إثر ذلك إلى البيت، والمسجد ليس بعيدًا، ما الذي حدث؟ هل أنت بخير؟

- أنا بخير يا إياد، معذرة يا جماعة عن هذا القلق الذي سببته لكم، لقد أخرني عن الرجوع إلى البيت موضوع مهم كنت أتكلم فيه مع بعض المصلّين.

- الظاهر أنه مهم حقًّا ذلك الشيء الذي جعلك تعود على غير عادتك متأخرًا جدًّا، بل إنه جعلك لا تتذكر أن تطمئننا تليفونيًّا.

- نعم يا حليمة، للموضوع مهم جدًّا بالنسبة لكل مسلم غيور يغار على دينه وعلى من بعثه الله بهذا الدين رحمة للعالمين وقال فيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، فكان كما قال رب العالمين بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

– فهمت يا أبي، لعلكم كنتم تتناقشون في موضوع الرسوم المسيئة للرسول ﷺ التي نشرتها بعض وسائل الإعلام الحاقدة.

– نعم يا إياد، هو ذاك .. عندما خرجنا من المسجد جاء أحد المصلّين يعرض علينا شراء بطاقات أصدرتها منظمة عالمية تعنى بالطفولة بمناسبة اليوم العالمي للطفولة، فتدخلت لأشجع الحاضرين على شراء البطاقات منوّهًا بما شرعه الإسلام من حقوق للطفل، وكيف أن رسول الله ﷺ أوصى بالعناية بالطفل وإعداده بدنيًا وفكريًا وخُلقيًا حتى يصبح عنصرًا صالحًا نافعًا لنفسه ولمجتمعه وللإنسانية جمعاء، فتعجب بعض الحاضرون مما قلت، وتساءلوا كيف إذن تتجرأ بعض وسائل الإعلام في الغرب على الإساءة إلى رسول الله ﷺ من خلال الرسوم والمقالات التي يكتبها بعض الحاقدين والمتعصبين من أهل الملل الأخرى، والرسول ﷺ منذ قرون كان سباقًا إلى العناية بالطفولة؟!

– أرى يا أبي أن هؤلاء أناس متنكرون للحق وعنصريون، فهم أنصار التمييز العنصري، وإلا ما تجرءوا على الاستهزاء بالأديان والرسل، والواجب الرد عليهم وعدم السكوت، ولكن كيف؟

– ما قلته صحيح يا إياد، أما كيف فالرد يكون بأن نتعلم ديننا ونطبق تعاليمه ونجدّ في نشره وإفهام غيرنا ما يحتوي عليه هذا الدين من تشريعات وأخلاق وأحكام صالحة لكلّ زمان ومكان، تجعل المجتمعات تعيش في سلم وتآخٍ وأمان.

– فالواجب إذن يا أبي على كل مسلم أن يكون غيورًا على دينه ومقدساته، وعلى من جاء بهذا الدين الحنيف الذي ينبذ العنصرية والتعصب ويدعو إلى الإخاء والسماحة والتآلف والتحابب بين البشر.

- وهو كذلك يا رقية، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1]، فحسب الآية الكريمة يجب على الإنسان أن يخاف الله فلا يتعالى ولا يتكبر، فالله خلقه وخلق جميع الناس من نفس واحدة، وهو أبوهم آدم الذي خلق منه زوجه، وألّف منهما أسرة واحدة، فكانت مصدر كلّ الأسر، وهذا فالناس جميعًا إخوة، فلا أحد أعلى من أحد من حيث المصدر والعنصر، وهذا يقضي الإسلام على التمييز العنصري والتعالي على البشر باللون أو الجنس.

- فهذا إذن يا أبي نداءٌ إلى الناس جميعًا وإعلامٌ لهم بأنهم خُلقوا من أصلٍ واحد، فلا امتياز لإنسان على آخر من حيث الطبيعة البشرية حسب ما فهمت.

- نعم يا عفاف، وهذا يؤكده قول الله تعالى في آية أخرى إذ يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 98].

هذا يبيّن ويؤكد أن أصل نشأة البشرية واحد، فلا إنسان أرقى جنسًا من آخر، ولا أرفع عنصرًا من أخيه الإنسان، ما داموا خُلقوا من نفسٍ واحدة ومن أصلٍ واحد، هذا ما قرّره الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، أما غيره من الملل المنحرفة عن الحقّ والجادة فإنك تجد أن معظم أفرادها يحملون عقيدة بدائية تعاملت بها كثيرٌ من الشعوب في القرون الوسطى، وهي أن هناك ناسًا خُلقوا ليقودوا الآخرين

ويستعبدوهم ويسخّروهم لخدمتهم ومنافعهم، كما كان ذلك عند البيزنطيين والرومان والفراعنة وغيرهم ممن استعبدوا الناس وأذلّوهم وساموهم سوء العذاب.

- والله يا أبي هذه الفكرة سادت حتى في الأيام القليلة الماضية في بعض البلدان مثل جنوب أفريقيا وبعض المستعمرات في العالم، حيث إن الرجل الأبيض يرى نفسه أرقى من غيره، وأنه يجب أن يكون هو السيد وغيره مسخّرين لمصالحه!

- هذه الفكرة سائدة إلى الآن في بعض البلدان يا إياد، فالتمييز العنصري ما زال متفشيًا بين الأفراد والجماعات، وحتى الشعوب، وذلك رغم التقدم المادي والحضاري، والدليل هو ما تعانيه الشعوب المستعمرَة من ويلات وتنكيل من المحتل، وحتى ما يعانيه أبناء البلد الواحد من المستكبرين في الأرض، والعالم لا يحرك ساكنًا سوى التنديد من بعض المنظمات الإنسانية بدون جدوى، وأرى أن الذين يتهجمون على الإسلام ورسوله هم من هذه الطائفة الباغية التي ترى أن لها الحق في القضاء على كلّ من خالفها في اللون أو العقيدة.

- ما قالته رقية صحيح، بينما نرى أن الإسلام جاء بالسماحة والرحمة، ينبّه الناس أنهم من عنصرٍ واحد ومن أصلٍ واحد، وأن الفرق في اللون هو آية من آيات الله، فلا يرفع ويخفض ولا يميّز أحدًا على أحد، ولا حقّ لصاحب لون أن يستعبد صاحب لون مغاير، وقد نبّه الله سبحانه وتعالى إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: 22].

ولقد كرَّم دين محمد ﷺ الإنسان بقطع النظر عن لونه أو جنسه، فعامل الناس بالعدل وحفظ كرامتهم وصان حقوقهم، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

ففي الإسلام لا حقَّ لإنسان أن يتعالى على إنسان باللون والجنس والمال أو النسب، فرسول الله ﷺ يقول: «إن الله قد أذهب عنكم عيبة (الكبر والتعاظم) الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعنَّ رجال فخرهم بأقوام، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان (حشرة سوداء تجمع روث الدواب) التي تدفع بأنفها النتن» (أخرجه الترمذي).

– وبهذا محا الإسلام من نفوس المسلمين نزعة الجاهلية، وهي التعالي بالجنس أو بالمال أو بالأولاد أو بالأنساب على الفقراء والعبيد والضعفاء، وأبدل بذلك الإيمان والتقوى والعمل الصالح، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 123– 124]

– هذا هو الميزان الذي يَزِن به ديننا البشر، هو الإيمان والعمل الصالح كما جاء في الآية التي ذكرناها يا إياد.

- على ذِكر تكريم الإنسان يا أبي، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

- جازاكِ الله خيرًا يا رقية إذ ذكّرتني بهذه الآية العظيمة التي جاء بها دين محمد ﷺ، فهذه حجّة على كلّ عدوٍّ لمحمد ولدينه، وعلى كل من يدّعي أنّ الإسلام دين تعصُّب وتنكُّر للآخر، فالإسلام يؤمن بأن الله خلق الناس مختلفين في الألوان والألسن ذكورًا وإناثًا للتعارف والتحابب والتآلف، وللعمل الصالح وتقوى الله، ونفْع بعضهم بعضًا، لا للتدابر والتقاتل والتناحر والتعصب ونشر الباطل والظلم والعلو في الأرض والفساد، فالإيمان بالمبادئ السامية التي دعا إليها الإسلام يجعل نظرة الإنسان للإنسان وللمجتمع الذي يعيش فيه حسب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13].

ولقد عاش رسول الله ﷺ وسط قبائل تؤمن بالعصبية وبعناصرة العشيرة ولو كانت ظالمة وباغية؛ فحرَّم عليهم الظلم والدعوة إلى العصبية والقتال من أجل التعصُّب والعنصرية، فقال ﷺ: «**ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية**» (رواه أبو داود)، وبهذه التوجيهات البناءة والحكيمة كان الإسلام دين تآخٍ يجعل المجتمعات لا تعرف العنصرية ولا التفرقة بين الألوان ولا الطبقات، وكرامة الإنسان في المجتمع المسلم لا تكون إلا بالقيام بالواجب والعمل الصالح وتقوى الله، وبذلك يدخل جميع أفراد المجتمعات في أخوة إنسانية تعمل

على ترقية الإنسان والنهوض به حتى يصل إلى الكمال الذي يريده الله له، وهو الكرامة والخلافة في الأرض.

– قلت يا أبي: يدخل جميع أفراد المجتمعات في أخوّة إنسانية. حتى ولو كانت هذه المجتمعات لها عقائد متباينة وأوطان مختلفة؟

– نعم يا عفاف، يؤاخي بين البشر ولو لم يكن بينهم صلة عقائدية أو وطنية أو نسب، فقد ذكر القرآن هذه الأخوة في الإنسانية حين ذكر قوم لوط، فقال سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: 160- 162].

فلوط كان غريبًا عنهم أتاهم من بلد بعيد ليهديهم ويردعهم عن الفساد في الأرض، ويرشدهم إلى ما فيه خيرٌ لهم، فسمّاه الله سبحانه وتعالى «أخوهم»، فهذه أخوة الإنسان التي تعطي أهل الملل الأخرى حرياتهم، فالإنسان في المجتمع المسلم له الحرية الدينية والسياسية والفكرية وحرية الملكية وحرية العمل، فالإسلام لا يُكره الإنسان على ترك دينه، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256].

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99].

– إذن فمهمّة رسول الله ﷺ هي التبليغ وليس إكراه الناس على الدخول في الإسلام كما يقول الأعداء إنه حارب الناس ليُدخلهم في دينه بالسيف!

– هذا افتراءٌ على رسول الله ﷺ وعلى الدين الإسلامي يا رقية، فمحمد ﷺ داعية إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فالله يقول له: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125]، وقال له: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية22]، فهو صلّى الله عليه وسلّم ما عليه إلا أن يبلغ الرسالة للناس دون أن يكرههم على الدخول في الإسلام، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران20].

– وبذلك أعطى الإسلام الحق لأهل الأديان الأخرى أن يعيشوا في ظلّ الإسلام دون إكراه على الدخول فيه، بل لهم الحق في أن يقوموا بشعائر دينهم آمنين، فلا تُهدّم أماكن عبادهم، ولا تُمس طقوسهم بأذى، وكل ما هو جائز في دينهم لا يُمنعون منه مثل الخنزير والخمر للنصارى، ولو أنه محرّم في الإسلام.

– هذا هو الحقُّ يا إياد، كما أن لهم الحرية في قضايا الزواج والطلاق وغير ذلك من تشريعاتهم، ولقد قال ﷺ: «اتركوهم وما يدينون»، وأكثر من هذا فقد أعطاهم الإسلام حق المناقشة وصان حقوقهم وجعل لهم حرية الجدال بالمنطق والمعقول وبدون عنف؛ إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ

﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 46].

وهكذا يعيش أهل الأديان الأخرى في المجتمع المسلم، لهم حقوقهم كاملة، موفوري الكرامة، مصاني العقيدة، وعليهم ما على غيرهم من المسلمين؛ لأن الإسلام أعطاهم حق المواطنة، هذا ما داموا مسالمين.

- قلت يا أبي «حق المواطنة» لم أفهم؟

- نعم يا عفاف، فأبناء الوطن الواحد لهم حق المواطنة، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: 36].

فشعيب ليس أخاهم من النسب، ولا هم متبعين دينه فيكون أخاهم في الدين، ولكن هو ابن وطنهم؛ فسمَّاه الله «أخوهم»، وبذلك يكون أبناء الوطن الواحد تجمع بينهم حقوق وواجبات المواطنة مهما كانت عقيدتهم.

- هناك حادثة وقعت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليهودي تبيِّن تصرف أفراد المجتمع المسلم الذين ربَّاهم محمد ﷺ وعلمهم العدل مع غيرهم بقطع النظر عن عقيدته، فقد جاء في الحديث أنَّ عليًّا بن أبي طالب رضي الله عنه تخاصم في مجلس عمر رضي الله عنه مع رجل يهودي، فقال عمر: «اجلس يا أبا الحسن»، فرأى

عمر في وجه علي غضبًا، فقال: «أكرهت أن يخاصمك رجل يهودي؟»، فقال: «لا يا أمير المؤمنين، ولكني كرهت تفضيلك لي على خصمي بأن كنَّيتني».

– الله أكبر، علي رضي الله عنه يرى أنه من العدل أن يناديه عمر باسمه «علي» كما نادي اليهودي باسمه، ولا يفضله في مجلس القضاء على خصمه فيناديه بكنيته وهي «أبا الحسن»!

– نعم يا إياد، هكذا كانت أخلاق المسلمين مع غيرهم، وهكذا كانت معاملتهم لسكان بلدهم من أصحاب الملل الأخرى، كانت معاملة تكريم واحترام وعدل وقسط؛ لأن الإسلام يدعو إلى العدالة بين الناس جميعًا من غير تفرقة كما قلنا بين الألوان ولا بين الأجناس ولا بين الحاكم والمحكوم، يقول الله سبحانه وتعالى في هذا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: 8]، فمعنى هذا أن الله يأمر المسلمين أن يعدلوا حتى مع أعدائهم، وهذا رسول الله ﷺ في يوم من الأيام باعه يهودي بيعًا إلى أجل فجاءه قبل الأجل يأخذ ثمنه، فقال له: «لم يحلّ أجله» فقال اليهودي: إنكم لُطل يا بني عبد المطلب؛ فهمَّ به أصحابه فنهاهم، فلم يزده ذلك إلا حلمًا، فقال اليهودي: كلُّ شيءٍ منك عرفته من علامات النبوة وبقيت واحدة: أنه لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حِلمًا؛ فأردت أن أعرفها؛ فأسلم اليهودي، ولقد أخذ هذا الأمر الرعيل الأول من المسلمين، فكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول: «القويُّ فيكم ضعيفٌ عندي حتى آخذ الحقَّ منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له»، وكان هذا من جميع الخلفاء الراشدين الذين ربَّاهم محمد ﷺ بقطع النظر عن عقيدة المظلوم أو جنسه.

– هولاء الحاقدون يا أبي يتهمون الإسلام كذلك بمنع حرية التعبير والحرية السياسية.

– هذا افتراء على الإسلام وعلى رسوله ﷺ، ليس هناك دين دعا إلى حرية التفكير والتعبير مثل ما دعا إليه الإسلام، فالتفكير صادر عن العقل، والله سبحانه تعالى ميز الإنسان عن غيره من المخلوقات بالعقل، وهو أداة العلم، وأول ما أنزل الله في القرآن هو الدعوة إلى العلم فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1].

وفي الإسلام لا يكون الإنسان مكلفًا إلا بالعقل، فالتكليف يسقط على من لا عقل له مثل المجنون وعلى من لم يكتمل عقله كالصبي، هذا وقد دعا الإسلام إلى تنشيط العقل بالنظر في ملكوت السماوات والأرض والتفكر فيما حوله، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 190-191]، فرسول الله ﷺ لما تلا هذه الآية قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر» (رواه ابن حبان)، وهذا يكون للإنسان حرية التفكير وكذلك حرية التعبير عن رأيه والجهر بالحق، هذا ما دعا إليه الإسلام حتى قال رسول الله ﷺ : «الساكت عن الحق شيطان أخرس» (رواه الترمذي والنسائي)، ولقد أخذ البيعة عن أصحابه أن يقولوا الحق ولا يخافون لومة لائم، وأن يقولوا الحق ولو كان مرًّا، وفي ظلّ الإسلام كانت حرية التعبير ميزة تميز بها المجتمع المسلم وأذكر لكم مثال: في عهد عمر رضي الله عنه أراد

عمر أن يحدد المهور ويلغي الغلو فيها في خطبة من خطبه، فقامت امرأة وخطّأته وقالت: يا أمير المومنين، الله يقول: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء20]، فقال عمر رضي الله عنه: «كل الناس أعلم منك يا عمر حتى النساء، أصابت امرأة وأخطأ عمر».

– سبحان الله، هذا وقع في خلافة عمر رضي الله عنه، هذا إذن دليل واضح على أن المسلمين كانوا سابقين في إطلاق الحريات والاعتراف بحقوق الإنسان، وليس كما يدعي أعداؤه أنه دين تعصب ومنع الحريات، ظَلم المرأة خاصة، الحمد لله أن هذه القصة تفنّد ادعاءاتهم وافتراءاتهم على الإسلام والمسلمين.

– نعم يا رقية، هذا وقع في خلافة عمر، والأمثلة كثيرة، بالله عليكم، هل تستطيع اليوم حتى في الدول المتقدمة التي تدعي حرية التعبير وحرية الرأي أن تقف امرأة من عامة الشعب تعارض رئيس البلاد في قانون يريد أن يصدره فيأخذ برأيها ويتراجع عن إصدار ما قرره؟ وهل بعد هذا يتهمون الإسلام بإهدار حقوق المرأة ومنع حرية الرأي وحرية التعبير؟! فالإسلام يا جماعة لم يجبر الإنسان على عقيدة خاصة، بل جعل أساس العقيدة التفكير والنظر لتكون على اقتناع، فالعقيدة في الإسلام ليست تقليدًا أو اتباعًا للآباء والأجداد، أو لمن يريد أن يفرضها بالقوة، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 185]، ويقول تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ* فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: 219– 220]، ولذلك جعل سبحانه لكلّ إنسان الحق في النظر فيما حوله

واستعمال عقله وما زوده الله به من وسائل توصله للحقائق الكونية، وحرية الفكر والتعبير هي التي أوصلت المسلمين إلى بناء حضارة هي أساس الحضارة الغربية اليوم، لقد ازدهرت العلوم في البلاد الإسلامية كالطب والكيمياء والهندسة والرياضيات وغيرها من العلوم مع الفقه والتوحيد وعلم الاجتماع والفلسفة وغير ذلك، فالإسلام لم يحرم إلا الترويج للأخلاق السيئة ونشر الفساد في الأرض والإلحاد وكلّ ما يضر بالفرد والمجتمع.

– لقد حدثتنا عن حرية الرأي وحرية التعبير، فهل لك يا أبي أن تحدثنا عن الرسول ﷺ كيف كان يستشير أصحابه ومن حوله فيما ليس فيه وحي حتى نستطيع أن نفنّد كلام المغرضين للمتعصبين وننصر ديننا ورسولنا العظيم وننشر ما جاء به من تعاليم بناءة وتشريعات حكيمة ترفع من مستوى الأفراد والجماعات.

– حسنًا يا عفاف، رسول الله ﷺ هو أول حاكم في الإسلام، ورغم أنه معصوم ويتصرّف بوحي من الله كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: 110]، وقال فيه جل وعلا: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 3-4]، نجده صلّى الله عليه وسلّم يستشير الصحابة في ما لا وحي إليه فيه، ويأخذ برأيهم إذا أشاروا عليه، وهو الذي أنزل الله عليه قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]، لقد كان صلّى الله عليه وسلّم مثالاً رائعًا في تطبيق هذا الأمر كعادته في تطبيق كلّ ما أمر به

القرآن، حتى كان «قرآنًا يمشي على الأرض» كما شهدت بذلك زوجته عائشة رضي الله عنها. ومثال ذلك في صلح الحديبية، جاء في الأثر:

لما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب، أي كتابة الصلح بينه وبين مشركي قريش، قال لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، قال: والله ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت: «يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا كلمة حتى تنحر بدنك، ثم تدعو حالقك فيحلقك»، فقال: فخرج فلم يكلم أحدًا حتى فعل ذلك، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا (رواه البخاري).

– الحمد لله، هذا دليل يفند كلام المغرضين، فها هي امرأة تشير على رسول الله ﷺ فيأخذ برأيها لما رأى فيه من صواب، ويطبق ما أشارت عليه بدون اعتراض، فتكون العاقبة خيرًا له ولأصحابه.

– نعم يا إياد، والأمثلة كثيرة مثبتة في كتب السيرة، فتراه صلّى الله عليه وسلّم لا يستبد برأيه، ويأخذ بما يشير عليه الصحابة ولو خالف ذلك رأيه، فقد سمح لأفراد الأمة بإبداء آرائهم وقبل النقد، وتجاوز حتى على التصرفات الحمقاء والأذى من بعض المنافقين، فكان يصفح عنهم ويتجاوز عن سيئاتهم وأذاهم له، لقد جاء في حديث: "لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناسًا في القسمة، فأعطى الأقرع بن الحابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك، وأعطى ناسًا من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة، فقال رجل: والله إن هذه قسمة ما عدل فيها وما أريد فيها وجه الله، فقلت: والله لأخبرنّ رسول الله ﷺ، فأتيته فأخبرته بما قال: فتغير وجهه حتى كان كالصرف (صبغ أحمر)، ثم قال: «فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟»، ثم قال: «يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»، فقلت لا جرم، لا أرفع إليه بعدها

حديثًا" (رواه البخاري)، وفي رواية أخرى عن أنس رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجذبه جذبة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ، وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: يا محمد، مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه، فضحك، ثم أمر له بعطاء» (رواه البخاري).

- هذا يدلُّ على أن رسول الله ﷺ، وهو أول حاكم في الإسلام، رغم أنه يتصرَّف بوحي من الله عزَّ وجل، كان يقبل مراقبة عمله ونقد تصرفاته، ولم يعاقب حتى من تطاول عليه واتهمه بعدم العدل في القسمة، فهذا دليلٌ على وجود حرية التعبير والمعارضة في المجتمع المسلم وفي ظلِّ الإسلام.

- هو كذلك يا إياد، ولقد سار الخلفاء الراشدون من بعده على هذا المنهج، وهم الذين بويعوا من قبل الصحابة، وتولَّى كلُّ واحد منهم الحكم بالإجماع عليه وانتخابهم له، فلما تولَّوا رئاسة الأمة أطلقوا حرية الرأي والتعبير في مراقبة أعمال الحاكم وحرية النقد للسلطة، وجعلوا ذلك حقًّا لكلِّ فرد من أفراد المجتمع ولم يكمِّموا الأفواه، فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما ولي أمر الخلافة خطب في الناس قائلاً: «أيها الناس، إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدِّدوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم».

- أظن يا أبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم ولي أمر المؤمنين خطب فيهم بنحو ما قاله أبو بكر الصديق رضي الله عنه، أليس كذلك؟

– نعم يا رقية، لقد قال رضي الله عنه: «أيها الناس، من رأى منكم اعوجاجًا فليقوِّمه»، فقام إليه أحد الأعراب وقال له: «والله يا أمير المؤمنين لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقوَّمناه بسيوفنا هذه»، فقال رضي الله عنه: «الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من يقوِّم اعوجاج عمر بسيفه إذا اعوجَّ»، وأكثر من هذا يا جماعة لقد جاء في الخبر أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه «اتقِ الله يا أمير المؤمنين»، فاعترضه آخر وقال له: «تقول لأمير المؤمنين اتق الله؟» فقال عمر رضي الله عنه: «دعه؛ فليقلها، فإنه لا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم». وهذا سيدنا عثمان رضي الله عنه يقول حينما ولي الخلافة: «أمري لأمركم تبع». هكذا كانت حرية الرأي وحرية التعبير والحرية السياسية تسود المجتمع المسلم بتشجيع من حكام المسلمين في ذلك الوقت؛ لأنهم اتخذوا نبيهم محمد ﷺ أسوة حسنة، وهو الذي أوحى إليه ربه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: 21- 22].

– الحمد لله الذي حبانا بمحمد ﷺ بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

– أحسنتِ يا عفاف، وهذا واجب كل مسلم أن يحمد الله على أنه متبع لدين محمد ﷺ وما جاء به من تشريعات جعلته رحمة للعالمين، وهو الذي علمنا كيف نتعامل مع من خالفنا في الرأي أو العقيدة؛ فأوصانا أن نعاملهم بالعدل والبر الذي هو إرادة الخير والإحسان، ولم يستثنِ إلا الذين يقاتلون المسلمين ويبغون عليهم، وقد قال الله سبحانه وتعالى في ذلك: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ

﴿اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: 8- 9]، وبذلك يعيشون وسط مجتمع المسلمين، مصانين الحرمة، لا يُعتدى عليهم ولا يُمسون بمكروه ما داموا على العهد كافين أذاهم على المسلمين، مودين ما عليهم من واجبات، وقد قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذي عليهم»** (رواه أبو داود).

و«الذي عليهم» هنا هي الجزية على القادر منهم، وهذا واجب جعله الله عليهم نحو الدولة المسلمة مقابل حمايتهم والدفاع عنهم، كما أوجب الله على المسلمين الزكاة للقادر على أدائها، كما أنه جعل دماءهم محرمة مصانة، فقال صلّى الله عليه وسلّم: **«من قتل معاهدًا معهدًا في غير كنهه حرم الله تعالى عليه الجنة»** (رواه أبو داود والنسائي)، وحرم ظلمهم حتى في تكليفهم ما لا يطيقون فقال ﷺ: **«مَن ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة»** (رواه أبو داود).

وهكذا نرى أن رسول الله ﷺ من حرصه على معاملة المخالفين لنا في الدين معاملة الإحسان واحترام الحقوق، يتوعد كلّ من خالف وصاياه فيهم بمحاجته يوم القيامة، أي مخاصمته، وهذا منتهى الإحسان إليهم ماداموا لا يحاربوننا في ديننا ولا يبغون علينا، ولا ننسى أن الإسلام سوّى بين الوالدين المسلمين وغير المسلمين في المعاملة من برّ وإحسان وبذل المعروف؛ إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ

﴿اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 14- 15].

وجاء في الحديث عن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت: «قدمتْ عليَّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: قدمت عليَّ أمي وهي راغمة، أفأصل أمي؟ قال: «نعم، صلي أمك» (رواه البخاري ومسلم)، وبذلك كان صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في معاملته لأهل الأديان الأخرى، ولقد جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: «كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ، فمرض؛ فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: أسلم؛ فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال: أطع أبا القاسم، فأسلم؛ فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار» (رواه البخاري)، وهكذا نراه صلّى الله عليه وسلّم لم يكتفِ بزيارة مريضهم، بل حاول أن ينقذه من النار بإدخاله للإسلام، وهذا منتهى الشفقة والرحمة التي كان يعامل بها مخالفيه في الدين، وحتى من مات منهم نراه يتصرف مع جنازته باحترام وخشوع على أنها نفس بشرية، وفي رواية عن سهل بن حنيف وقيس بن سعد أنهما كان قاعدين بالقادسية، فمرُّوا عليهما بجنازة؛ فقاما، فقيل لهما: إنها من أهل الذمة؛ فقالا: إن رسول الله ﷺ مرت به جنازة فقام؛ فقيل له: إنها جنازة يهودي؛ فقال: «أو ليست نفسًا؟» (رواه البخاري).

- هناك يا أبي من يعترض على تسمية اليهود والنصارى الذين يعيشون في المجتمع المسلم بـ«أهل الذمة».

– هذا يا إياد لجهلهم بمعنى لفظ «الذمة» عندما أطلقها عليهم رسول الله ﷺ، فالذمة معناها: ذمة الله وعهده وذمة الرسول ﷺ ورعايته والمسلمين من بعده، والحديث الذي رُوي عن رسول الله ﷺ يبين ذلك إذ يقول: «**من آذى ذميًّا فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة**» (رواه أبو داود)، وهذا يجعلهم يعيشون في ظل الإسلام آمنين مطمئنين، وفي حديث آخر يجعل إلقاء السلام عليهم أمانًا لهم؛ إذ يقول صلّى الله عليه وسلّم: «**إن الله جعل السلام تحية لأمتنا وأمانًا لذمتنا**» (رواه البيهقي).

– وعلى ضوء هذا كانت معاشرة المسلمين لغيرهم ببذل المعروف والإحسان والاحترام، فلا فرق بين مسلم وغيره.

– نعم يا عفاف، لهم حقوق وعليهم واجبات، ومثال ذلك حق الجيرة، فقد جاء في الخبر: ذُبحت شاة لابن عمر رضي الله عنه فقال لأهله: هل أهديتم منها جارنا اليهودي؟ قالوا: لا، قال: ابعثوا له منها؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**» (متفق عليه)، وهكذا نرى أن المسلمين لا يفرقون بين المسلم وغيره في المعاملة الحسنة وبذل المعروف والعدل والقسط.

وفي حديث آخر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مع خاصته في موسم الحج وعمرو بن العاص وابنه معهم، فقدم عليهم رجل قبطي وقال مخاطبًا عمر: يا أمير المؤمنين، إن هذا – وأشار إلى ابن عمرو بن العاص – ضربني ظلمًا وقال: اذهب؛ فأنا ابن الأكرمين، فنظر عمر رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص وقال له: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟»، ثم توجّه إلى الشاكي، وناوله الدرّة وقال له: «اضرب بها ابن الأكرمين كما ضربك».

وهذا كله صان الإسلام حقوق أهل الأديان الأخرى وأوصى بهم خيرًا على لسان نبي الإسلام ﷺ، ونصَّ الخلفاء الراشدون من بعده والفقهاء وعلماء الأمة الإسلامية على وجوب معاملة المخالفين لنا في العقيدة بالمعروف والإحسان ودفع الأذى عنهم ولو بكلام السوء ما داموا غير محاربين لنا في الدين وغير باغين علينا، وهذا تأسيًا برسول الله ﷺ، وعملاً بأحكام ديننا الحنيف.

- الله أكبر، فهل من جاء بشريعة لا تفرق في مكارم الأخلاق والعدالة وحقوق الإنسان بين أبيض وأسود وأعجمي وعربي ومسلم وغيره من أصحاب الديانات الأخرى يستحق السخرية والإساءة؟ اللهم لا إلا من حاقد متعصب عدوٍّ للإنسانية شيطان.

- نعم يا بني، وصدق الله سبحانه إذ يقول: ﴿كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112] صدق الله العظيم.

«استوصوا بالنساء خيرًا»

– سيدتي، لقد كثر هذه الأيام الحديث عن نشر بعض وسائل الإعلام المغرضة والمعادية للإسلام صور مسيئة للرسول ﷺ، والواجب على كل مسلم غيور أن يردَّ على هؤلاء الحاقدين، وأن يدافع عن صاحب الرسالة الخالدة، وأن ينصره وينصر دينه، ومما يؤاخذ به هؤلاء رسول الله ﷺ والدين الذي جاء به هو ظلم المرأة كما يدَّعون، وعدم إعطائها ما تستحق من حقوق، لذا أسألك باسم زميلاتي أن تحدثينا عن مكانة المرأة في الإسلام، وتنصحينا كيف يجب أن نرد على أعداء رسول الله ﷺ وأعداء الإسلام، ونحن توجهنا إليك كمختصَّة في العلوم الإسلامية، وشكرًا جزيلاً.

– جازاكنَّ الله خيرًا يا رقية، هذا موضوع مهم للغاية، أعانني الله على الكلام فيه وتوضيحه بما يحبه ويرضاه، ولكي يتضح لكُنَّ موقف الإسلام من المرأة والحقوق التي حباها بها والمكانة التي تبوَّأتها المرأة في ظلِّ الإسلام يجب علينا أن نسلط الأضواء على ما كانت عليه المرأة قبل الإسلام عند الأمم الأخرى.

– تقصدين أمة العرب قبل الإسلام سيدتي؟

– لا، أقصد عرب الجاهلية فقط يا سمية، بل كل الأمم بما فيها أصحاب الحضارة مثل اليونان والرومان والهند وغيرهم، فالمرأة قبل الإسلام كانت محرومة من كافة حقوقها المدنية، فهي كالرقيق تعيش في العبودية تحت وطأة الظلم والاضطهاد.

– في أي عصر كانت هكذا يا سيدتي؟

– في جميع العصور التي سبقت الإسلام يا رقية، نرى مثلاً في الهند يعتبرون المرأة غير راشدة، ولا حق لها في التصرُّف في مالها، ولا في أي شيء له علاقة بها،

فهي ترجع إلى زوجها في كل شيء، وتعتبر جزءًا منه، حتى إذا مات حُكم عليها بالإعدام وأُحرقت معه.

- يا للفظاعة! إلى هذا الحدّ يسلبون منها إنسانيتها؟

- نعم يا بنات، ولم تكن المرأة في الحضارة اليونانية أسعد حظًا، بل كانت محرومة لأنها أنثى، لا حقّ لها في الميراث، فالميراث للذكور، والمرأة عندهم من عمل الشيطان، وهي بعيدة من رحمة الله؛ لأنها تحمل ذنب أمها حواء، لذلك هي محرومة من جميع حقوقها المدنية كالبيع والشراء وحرية اختيار الزوج والميراث، وغير ذلك من الحقوق التي يتمتّع بها الرجل.

- إذن هي مواطنة من درجة ثانية.

- هي كذلك يا رقية، أمّا عند الرومان فالأسرة كلها بيد الأب، وليس لأحد من أفرادها الحقُّ في المشاركة في تسييرها ولو بالرأي، وإذا ما توفي الأب ترجع السلطة المطلقة للابن الأكبر، بينما تبقى المرأة بلا حقوق لها ولا مكانة طيلة حياتها، فإن مات أبوها تبقى تحت سلطة أعمامها، ثم زوجها إن تزوجت.

- سيدتي، ربما الذي جعلهم يعاملون المرأة بهذا الأسلوب أنهم ليس لهم تشريعات سماوية ترشدهم إلى الحق.

- لا يا سمية، حتى أهل الكتاب عصوا الله في المرأة ولم ينصفوها ويعاملوها بشرع الله، بل اضطهدوها وسلبوا إنسانيتها، فنرى مثلاً اليهود يرَون أن المرأة غير راشدة ويجب التحرُّز منها وإخفاء الأسرار المهمة عنها لأنها عندهم غير مؤتمنة، فهي بالنسبة لهم لعنة، ولقد جاء في كتبهم المحرفة: المرأة أشدُّ من الموت.

– أكثر من هذا يا سمية، لقد جاء الإسلام ووجدهم يعاملون المرأة بقسوة، ويهينونها ولا يحترمونها من غير سبب، لقد هاجر المسلمون إلى المدينة فوجدوا اليهود حينما تحيض المرأة يعزلونها فلا يواكلونها ولا يجالسونها، وليس لها الحق أن تمسَّ أيَّ شيء في البيت؛ لأنهم يعتبرونها نجسة، وللزوج أن يبعثها إلى بيت أهلها حتى تطهر من الحيض، حتى إن الصحابة سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك وكيف يجب أن يتصرَّفوا مع الحائض؛ فجاء الوحي من عند الله يجيبهم ويرشدهم إلى معاملة المرأة في هذه الوضعية؛ فقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]، فقال لهم رسول الله ﷺ: «افعلوا ما بدا لكم مع الحائض إلا الجماع»، وفسر ذلك في سلوكه مع زوجاته، فكان صلّى الله عليه وسلّم يُقبِّل الحائض من زوجاته وينام معها في لحاف واحد، ولقد جاء عن السيدة عائشة قالت: «كنت أشرب وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع في فيشرب، وأتعرق العرق وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع في» (رواه مسلم)، وهكذا نرى أنه صلّى الله عليه وسلّم كان مثالاً رائعًا في التودد لزوجاته وملاطفتهنَّ ومعاملتهنَّ بالأخلاق الرفيعة، حتى إنه يأخذ اللحم بأسنانه من العظم الذي أخذت منه زوجته بأسنانها، ولقد جاء عن أم سلمة قالت: بينما أنا مع النبي ﷺ مضطجعة في خميصة إذ حضت، فانسللت فأخذت ثياب حيضتي، قال: «أنفست؟»، قلت: نعم؛ فدعاني فاضطجعت معه في الخميلة (رواه مسلم). فمن كرم أخلاقه أنه كان يبيت مع زوجته الحائض في لحافٍ واحد، ولا يستنكف من ذلك، كما جاء عن عائشة قالت: «كنت أرجِّل رأس النبي ﷺ وأنا حائض» (رواه أبو داود)، كلُّ هذا يدلُّ على المكانة التي كانت تحظى بها المرأة في الإسلام وخاصة عند رسول الله ﷺ.

– عليه الصلاة والسلام، ما أعظم أخلاقه وما ألطفه! وصدق الله العظيم إذ قال فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، سيدتي، وهل كانت المسيحية أرفق بالمرأة؟

– أقول لكنَّ كلام بعض القديسين منهم حتى تتبيَّن لكن مكانة المرأة عندهم، هناك من قال في المرأة: إنها مدخل الشيطان إلى الإنسان، ناقضة لنواميس الله، وقال آخر إنها شرٌّ لابد منها وآفةٌ مرغوبٌ فيها، وخطر على الأسرة والبيت، ومصيبة مطلية مموهة، وفي القرن السادس ميلادي اجتمع مجمع ماكون يبحث في مسألة المرأة، هل هي مجرد جسم لا روح فيه، وبعد أن قرر «أنها خلوٌّ من الروح الناجية من عذاب جهنم ما عدا أم المسيح»، كما عقد مؤتمر آخر قرر «أنها إنسان خُلق لخدمة الرجل فحسب».

– إذن هؤلاء الذين ينادون بحقوق المرأة ويتهمون الإسلام بظلمها اعترفوا بحقوقها بعد ما جاء الإسلام؟

– لا يا بنات، حتى بعد مجيء الإسلام بقرون لم يغيروا رأيهم فيها ولا معاملتهم لها، نرى أن القانون المسيحي البروتستانتي في انجلترا كان يبيح بيع الزوجات حتى عام 1805م، كما نرى أن ملك انجلترا هنري الثامن أصدر قانونًا يحرم مطالعة الكتاب المقدَّس على النساء. وفي حوالي سنة 1850 كان النساء في انجلترا غير معدودات من المواطنين، وكنَّ محرومات من حقوقهن الشخصية، ولا حقَّ لهنَّ في امتلاك الأموال التي يكتسبنها بعرق الجبين، ولا حق لهنَّ حق في تملُّك ملابسهن، وحتى الثورة الفرنسية التي تعتبر بداية التحرير في أوروبا، اعتبرت المرأة إنسانًا غير راشد!

– الحمد لله أن التاريخ شاهد عليهم بأنهم هم الذين اضطهدوا المرأة وسلبوها حق إنسانيتها، واليوم التعصب والعنصرية جعلهم يقلبون الحقائق ويتهمون الإسلام والمسلمون بعدم إعطاء المرأة حقوقها!

– نعم يا رقية، التعصب والكبر وغمط الناس هو الذي جعلهم يتهمون الإسلام ورسول الله ﷺ بظلم المرأة، ولكي نردَّ عليهم نقول لهم: إن الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ أعلن أن المرأة مخلوقة من نفس الرجل، وأنها السبب الثاني لولادة البشر وتعمير الأرض؛ فقد جاء في القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ آيات توضح هذا، يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1]، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: 72]، فهذه الآيات تقرر مساواة المرأة بالرجل في الجنس، فلها من المكانة والاحترام ما للرجل، وليست من جنس أقل منه أو من عمل الشيطان كما تدَّعي بعض الملل الأخرى، أو مواطنة من درجة ثانية، وهذا رسول الله ﷺ يقول: «إنما النساء شقائق الرجال» (رواه أبو داود)، وهكذا ترين يا بنات أن الإسلام هو الذي أثبت للمرأة إنسانيتها ورفع درجتها؛ فجعلها شقيقة الرجل، لا فرق بينه وبينها من حيث الإنسانية.

– الحمد لله، هذه حجَّة على من يدَّعي أن الإسلام يعتبر الرجل أفضل من المرأة.

– نعم يا سمية، كما أن الإسلام توعد الذين كانوا يسلبون المرأة حتى حقَّ الحياة، فيقتلونها رضيعة أو طفلة لأنهم يرَونها عارًا وعبئًا وعالة عليهم وهم عرب

الجاهلية الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ، لقد وبَّخهم القرآن على موقفهم من المرأة ولهاهم عن أفعالهم معها، وتوعَّد بالعذاب من يئد الأنثى، وبذلك أنقذها من القتل وجعل لها حق الحياة كأخيها الرجل تمامًا، يقول سبحانه وتعالى مخبرًا عن حال الرجل الذي تولد له أنثى وتصرفه معها: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ*يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: 58، 59]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 31]، ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ*بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 8- 9]، وينهاهم الرسول ﷺ عن وأد البنات تأكيدًا لما جاء في القرآن، فيقول صلّى الله عليه وسلّم: «**إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات ومنع وهات ووأد البنات**» (متفق عليه).

- كانوا يا سيدتي يقتلونها ولا ذنب لها إلا لأنها أنثى، وهذا كان يفعله العرب في الجاهلية.

- نعم، هذا من احتقارهم للمرأة، كان الذي تولد له أنثى يشعر بالذل والخزي إذا أبقاها على قيد الحياة، وهو الذي عبَّر عليه القرآن ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ [النحل: 59]، أما ما تقوله الملل الأخرى من أن المرأة تحمل ذنب أمها حواء فهذه خرافة يفنِّدها الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، فيقول الله سبحانه وتعالى في القرآن: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ* فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: 35- 36]، فدين محمد ﷺ يقول إن الشيطان وسوس لآدم وزوجه وليس كما تقول الملل الأخرى أن الشيطان اتخذ حواء أداة لغواية آدم، وهي المسئولة عن المعصية، ومما يؤكد أن ما يقولونه افتراء قوله تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: 22]، بل أكثر من هذا في بعض الآيات يجعل القرآن المسئولية على آدم، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى* ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: 122]، كما يقول سبحانه: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37]، وهكذا نرى أن الإسلام لا يتّهم زوج آدم بالخطيئة وحدها، ثم لا يحملها المسئولية، بل يجعل المسئولية لآدم، ثم يتوب الله عليهما لمّا استغفر بقولهما الذي حكاه عنهما القرآن: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]، فكانت لهما التوبة والهداية .. وديننا الحنيف يجعل كلّ فرد مسئولاً عن أفعاله ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: 21]، وبالتالي فالمرأة لا تحمل خطيئة أمها حواء، كما أنّ الرجل لا يحمل خطيئة أبيه آدم.

– وحتى تتضح لكُنّ المكانة المرموقة التي تبوّأها المرأة تحت ظلّ الإسلام أقول: بينما كانت المرأة في بعض المجتمعات الأوروبية محرومة من التديُّن وقراءة الكتاب المقدّس، ويجعلونها بعيدة عن الرحمة إلا أم المسيح، نرى أن الإسلام يساوي بينها وبين

الرجل في التقرُّب إلى الله بالعبادات والعمل الصالح وتطهر النفس، ولها مثل ما للرجل مما أعدَّه الله من جزاء في الدنيا والآخرة، يقول سبحانه وتعالى في ذلك: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35]، كما جعل الله للمرأة الثواب على الأعمال الصالحة مثل ما لأخيها الرجل تمامًا، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 124]، والمرأة في الإسلام تتحمل المسئولية كاملة أمام الله سبحانه وتعالى، فلا تأثير لأعمال زوجها عليها إن كانت أعمالـه صالحة أو فاسدة، فلها الجنة إن كانت مؤمنة طائعة لربها ولو كان زوجها فرعون، ولها النار إن كانت عاصية كافرة ولو كان زوجها نبي، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ* وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: 10- 11].

– هذا دليل على أن الإسلام يعتبر المرأة راشدة وليست قاصرة وغير راشدة، كما كان يعتبرها الأوروبيون والمجتمعات الأخرى قبل مجيء الإسلام وحتى بعد ما جاء.

– هو كذلك يا رقية، ومما يدلُّ على ذلك أنه أعطاها حق البيعة مثل الرجل، وأنزل الله قرآنًا في ذلك، فبايع الرسول ﷺ النساء على السمع والطاعة والقيام بالفرائض، والابتعاد عن المحرمات، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ﴾ [الممتحنة: 12]، كما جعل لها الإسلام حقَّ التعاون مع أخيها الرجل على البر والتقوى، والتناصر لما فيه خير المجتمع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعبادات والتكافل الاجتماعي حتى يجازيها الله سبحانه وتعالى كما يجازي أخاها الرجل، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 71– 72]، فكانت المرأة في عهد الرسول ﷺ ومن بعده تذهب إلى المسجد وتصلي صلاة الجمعة، حتى إنه أنكر على من أراد أن يمنع زوجته

الذهاب إلى المسجد، وقال صلّى الله عليه وسلّم: «لا تمنعوا إماء الله مساجد، الله وليخرجن تفلات (أي غير متطيبات)» (رواه أحمد وأبو داود). وكان صلّى الله عليه وسلّم يأمر النساء بالخروج إلى صلاة العيد حتى وهنّ حيض ليشهدن احتفالات العيد ويشهدن الخير، وكنّ يعتزلن المصلى لأن الصلاة تسقط على الحائض والنفساء، عن إحدى الصحابيات قالت: «أمرنا أن نُخرج العواتق والحيض في العيدَين يشهدن الخير ودعوة المسلمين، ويعتزلن الحيض المصلى» (رواه البخاري) ، وعن ابن عباس قال: «خرجت مع النبي ﷺ يوم الفطر أو الأضحى، فصلى ثم خطب، ثم أتى النساء فوعظهنّ وذكرهنّ وأمرهنّ بالصدقة» (رواه البخاري)، وكانت للنساء مكانة اجتماعية وكلمتهن مسموعة من رسول الله ﷺ، فينما كان الرجال يجتمعون بالنبي ﷺ ليعلمهم الدين، طلب النساء منه أن يجعل لهنّ وقتًا معلومًا ليتلقين عنه ما أنزل عليه الله من الوحي، فقلن: «يا رسول الله، غلبَنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا» (رواه البخاري)، فجعل لهنّ يومًا يعظهنّ ويعلمهنّ ويذكّرهنّ فيه، وجاءت امرأة تشكي إلى رسول الله ﷺ زوجها وظلمه لها؛ فسمع الله من فوق سبع سماوات شكواها، وأنزل في زوجها وأمثاله حكمًا يؤدّبهم ويردعهم، يقول تعالى في ذلك: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ...﴾ [المجادلة: 1].

وقد أمر الله تعالى النساء بقراءة القرآن وتعلم السنة النبوية من الرسول ﷺ بأنفسهنّ أو من خلال أزواجهنّ، فقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 34]، فكانت المرأة تحفظ القرآن والحديث وتتفقّه في الدين وخاصة زوجات الرسول ﷺ، حتى إن الخلفاء من بعده كانوا يسألونهن في بعض الأحكام التي يكون فيها إشكالاً، حتى قال أحد الصحابة: «ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة

إلا وجدنا عندها علمًا فيه»، وقال آخر: «ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا طب وبشعر من عائشة، وما كان يزل لها شيء إلا أنشدت فيه شعرًا»، كيف لا وقد أوصى الرسول صحابه قائلاً: «**خذوا نصف دينكم من هذه الحُميراء**» يريد عائشة (رواه البخاري).

- سيدتي، جاء في كتب السيرة أن المرأة المسلمة شاركت حتى في الجهاد.

- صحيح يا سمية، رغم أن الإسلام أعفاها منه، فقد كانت تخرج مع الجيش تسعف المصابين وتقدم الطعام والشراب وتحرِّض على القتال وتداوي الجرحى، ومنهم سيدة نساء الجنة السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ولقد كان رسول الله ﷺ حينما يريد الخروج إلى الحرب يقرع بين نسائه فتخرج معه واحدة منهن، ولقد جاء في الحديث عن إحدى الصحابيات قالت: «كنا نغزو مع رسول الله ﷺ فنداوي الجرحى ونمرِّض المرضى» (رواه أبو داود)، ولقد أعطاها الإسلام حتى حق تأمين من ترى من الأعداء، فقد طلبت أم هانئ بنت أبي طالب من الرسول ﷺ يوم فتح مكة أن تُجير رجلين فقالت: يا رسول الله، قد أجرت رجلين، فقال لها النبي ﷺ «**لقد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ**»، وفي حديث آخر قالت: قلت يا رسول الله، زعم ابن أم علي أنه قاتل رجلاً قد أجرته فلان (ابن هبيرة)، فقال رسول الله ﷺ «**قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ**» (متفق عليه).

- وبالتالي جاء الإسلام ليسوِّي بين بني آدم إناثًا وذكورًا، ولم يفرق بينهم في حقوق الإنسان، سواء في حق الحياة كما رأينا أو التربية والتعليم، فجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم، ذكر أم أنثى، وقال ﷺ: «**مُروا صبيانكم بالصلاة لسبع سنين واضربوهم عليها لعشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع**» (رواه أبو داود)، فكان حق التربية وتعليم العلم النافع للإناث والذكور حتى تكتمل إنسانيتهم، ويستطيع كلٌّ

منهم أن يقوم بواجباته، بل نرى رسول الله ﷺ يؤكد ويرغّب ويشجع على تربية الأنثى والقيام بحقوقها كي لا تُظلم كما ظُلمت عند الأمم الأخرى، حتى إنه يجعلها وقايةً من النار لمن يقوم بواجبه نحوها، فيقول ﷺ: «**من كانت له ابنة فأدّبها فأحسن تأديبها وربّاها فأحسن تربيتها وغذّاها فأحسن غذائها، كانت له وقاية من النار**» (رواه أبو داود)، أكثر من هذا يَعِد كافل الإناث والمحسن لهنَّ بالجنة، سواء كنَّ بناته أو أخواته، فيقول صلّى الله عليه وسلّم: «**من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بنتان أو أختان فأحسن صُحبتهن واتقى الله فيهنَّ فله الجنة**» (رواه البخاري).

– صلى الله عليه وسلم، نفهم إذن أن الإسلام يجعل كفالة الأنثى لأهلها حتى تتزوج؟

– نعم يا رقية، فالمرأة في الإسلام يرعاها أهلها ويحيطونها بالعناية والإحسان حتى تتزوج، ولقد شجّع رسول الله ﷺ المسلمين على ذلك، ودعاهم إلى الصبر على الأنثى في السراء والضراء، والعناية بها ورحمتها، وجعل جزاء ذلك الجنة؛ فقال ﷺ: «**من كان له ثلاث بنات فصبر على إيوائهنَّ وضرائهنَّ وسرائهنَّ؛ أدخله الله الجنة برحمته إياهنَّ**» فقال رجل: واثنتان يا رسول الله؟ قال: «واثنتان» قال رجل: يا رسول الله وواحدة؟ قال: «وواحدة» (رواه الحاكم)!

– صلّى الله عليه وسلّم، ما أكرمه وما أرحمه! فهذا منتهى الترغيب في إعطاء المرأة حقوقها وإكرامها واحترامها والرحمة بها، وهي في بيت أهلها وعند وليِّها حتى تذهب إلى بيت الزوجية.

– أما إذا بلغت سنَّ الزواج يا سمية فمن حقها أن تختار زوجها، فلا تُزوَّج إلا برضاها وإذنها، والواجب على وليِّها، أبًا كان أو أخًا أو غيره، أن يحصل على

موافقتها إذا جاءها خاطب، يقول رسول الله ﷺ في ذلك: «**الثيِّب أحقُّ بنفسها من وليِّها، والبكر تُستأمر، وإذنها السكوت**» (رواه البخاري)، كما روي عن أحد الصحابة أنه خطب امرأة؛ فقال له النبي ﷺ :«**انظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدم بينكما**» (رواه الترمذي)، أراد بذلك أن تحصل الموافقة والملاءمة بينهما، بينما كانت في المجتمعات الأخرى السلطة المطلقة على المرأة للأب ثم للابن الأكبر ثم للزوج إذا تزوجت، فلا حقوق للمرأة طيلة حياتها كما رأينا في المجتمع الروماني، أما في ظلِّ الإسلام فقد جاءت فتاة للنبي ﷺ فقالت: «إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته»؛ فجعل الأمر لها، فقالت: «قد أجزتُ ما صنع أبي، ولكني أردت أن أعلِّم النساء أن الآباء ليس لهم من الأمر شيء» (رواه ابن ماجة).

- هذه هي الحرية الشخصية التي ينادي بها الغرب اليوم ويُتهم المسلمون أنهم ضدها، وأن الإسلام حرم منها المرأة، بينما الإسلام قد سبقهم إليها منذ خمسة عشر قرنًا!

- هو كذلك يا بنات، فإذا كان الزواج عند الملل الأخرى استعبادًا للزوجة، وهي بالنسبة لزوجها غير راشدة، وترجع في كل حقوقها إليه، ولا حق لها طيلة حياتها، فهي مثل الرقيق، فالزواج في الإسلام «ميثاق» بين الزوجين على حدٍّ سواء، يقول سبحانه وتعالى في ذلك: ﴿**وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**﴾ [النساء: 21]، و«الميثاق» هو العهد، والتزام كلٍّ من الزوج والزوجة بواجباته نحو الآخر؛ فتصبح العلاقة بين الرجل وزوجته هي مراعاة هذا العهد والوفاء به، وفي آية أخرى تفسِّر للعلاقة بين الزوجين يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ**

﴿أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

– الله أكبر، هذا ردٌّ واضحٌ وجليٌّ على الذين يمتهنون المرأة ويضطهدونها وينكرون إنسانيتها ويحتقرونها، ويجعلونها ملكًا لزوجها، حتى إنه إذا مات أحرقوها معه كما كان يُفعل بها قديمًا في الهند.

– نعم يا سمية، بُعث محمد ﷺ للعالمين ليربي الناس ويغرس فيهم الأخلاق الكريمة، ويبعدهم عن الرذائل والأخلاق الذميمة التي كانت تتعامل بها الشعوب قديمًا، فالآية الكريمة تنبِّه كلًّا من الزوج والزوجة إلى العلاقة التي يجب أن تكون بينهما، وهي علاقة فيها السكينة، وهي راحة النفس والاطمئنان، وفيها المودة التي هي الحب والإيثار، وفيها الرحمة التي تتمثل في العطف والحنان والشفقة والتواضع، وهذا دليل على كرم الله وعظم قدرته أن خلق زوجة من جنسه وليست غريبة عنه كما قال السفهاء من الأمم الغابرة.

– سيدتي، هناك آية يقول فيها الله سبحانه وتعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: 187].

– أحسنتِ يا رقية، هذه الآية الكريمة جعلت كلًّا من الزوجين لباسًا للآخر، وهو تشبيه رائع؛ لأنَّ كلًّا منهما في حاجة إلى صاحبه كحاجته إلى اللباس، فاللباس يستر الإنسان ويخفي عيوب جسده ويُحمِّله ويُزيِّنه ويجعله محترمًا في المجتمع، كما يقيه من البرد والحَر ومن الأذى، فالزوج والزوجة كلٌّ لصاحبه مثل اللباس لا يفشي له سرًّا ويصون عرضه ويسعى لراحته وإسعاده ماديًّا ومعنويًّا، فالمرأة إذن في الإسلام

بالنسبة لزوجها كاللباس، وليس كما قال قديسهم: إنها شرٌّ لا بد منه وآفة غير مرغوب فيها وخطر على الأسرة والبيت ومصيبة مطلية مموّهة! والرجل كذلك؛ فهو كاللباس لزوجته وليس ديكتاتورًا متسلّطًا عليها تعيش معه محرومة من أبسط حقوق الإنسان، والمساواة بين الرجل والمرأة التي أصبح أهل الملل الأخرى ينادون بها اليوم قد سبقهم إليها الإسلام بما يزيد عن أربعة عشر قرنًا حينما كان الزواج عندهم استرقاقًا للمرأة، حيث قرروا في أحد مؤتمراتهم: «إنها إنسان خُلق لخدمة الرجل فحسب»، نرى أن القرآن نبَّه إلى المساواة بين الرجل والمرأة في الواجبات والحقوق؛ إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: 228]، معنى هذا أن للزوجة حقوق مثل ما للزوج ليعلم الزوج كيف يعامل زوجته في جميع الشئون والأحوال، فإذا أراد الرجل أن يكلفها بشيء ما يعلم أنه يجب عليه مثله نحوها، وبالتالي فالإسلام لا يسمح لأحد الزوجين أن يستذل الآخر أو يتخذه عبدًا يستخدمه في مصالحه، أو يعامله معاملة فيها ضرر، فعقد الزواج الذي عبَّر عليه الإسلام بـ«الميثاق الغليظ» جُعل لتكوين أسرة مستقرة بين شريكين، وهما الزوجين؛ ليحترم كلٌّ منهما الآخر، ويقوم بواجباته نحوه ويسعى لإسعاده.

– سيدتي، لو سمحتِ الآية الكريمة تقول: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: 228]، أليس هذا تفضيل للرجل على المرأة فتصبح أقل منه درجة؟

– ملاحظة قيِّمة منك يا رقية جازاكِ الله خيرًا، أُحييك، الآية الكريمة كما سبق وقلت ساوت بين الزوجين في الحقوق والواجبات، ولكن استثنت شيئًا واحدًا عبرت عنه بـ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، كما قلت لكُنَّ سابقًا: الزوجان شريكان في تكوين الأسرة التي نستطيع أن نعبر عنها بـ"المؤسسة الصغيرة" حينما يأتي الأبناء،

ومن الطبيعي أن يكون للمؤسسة رئيسٌ يديرها، والرئيس يجب أن تتوفر فيه الكفاءة لإدارة أعمالها، وهذه الكفاءة هي الدرجة التي جعلتها الآية للرجل على المرأة، ولقد فسَّرها القرآن في آية أخرى إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: 34]، فالله سبحانه وتعالى زوَّد الرجل بقدرة عقلية وجسدية تفوق قدرة المرأة ليتحمل أعباء المسئولية الموكَّلة إليه، وهي إدارة الأسرة والكفاح خارج البيت ليوفر لها ما يلزمها من ضرورات الحياة ويحافظ على مصالحها بقوته وماله، فهو أقدر من المرأة، لأنها حتى وإن كان لها من المال والقوة ما للرجل فلها حالات طبيعية تجعلها تفقد بعض قوتها كالعادة الشهرية، ثم فترة الحمل والرضاعة والسهر على رضيعها بما يجعلها تنصرف عن تحمُّل أعباء الأسرة خارج المنزل؛ فيكون الرجل أولى بتدبير المعاش وتكاليف الحياة للأسرة ليتوفر للزوجة الوقت لتربية أطفالها والسهر على توفير الراحة والطمأنينة والسعادة لأسرتها، ثم عدم القوامة هو راحة لها ورحمة بها، حتى حين تتخطى مرحلة الحيض والحمل والولادة والرضاعة؛ لأنها ستكون في سنِّ اليأس، ولهذه السنِّ مشاكل صحية ونفسية.

- ما أعظم الإسلام، إنه دين الله!

- الإسلام يا بنات شريعة الله التي حبا بها أمة محمد ﷺ، والله سبحانه وتعالى حينما خلق الذكر والأنثى خصَّ كلَّ واحدٍ منهما بوظيفة، وزوَّده بكلِّ ما يُعينه على أداء وظيفته؛ فأعطى للرجل القوامة، وهي تكليف لا تشريف، ثم حضَّه على معاملة زوجته معاملة حسنة؛ إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19]، ويفسرها صلَّى الله عليه وسلَّم بقوله: «استوصوا بالنساء خيرًا»، ثم

يقول صلّى الله عليه وسلّم: «لا يفرك المؤمن المؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر» (رواه مسلم)، أي يوصي الزوج بعدم بُغض زوجه إذا كان فيها من الأخلاق السيئة حتى وإن كرهها، يقول له الله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19].

وبما أن للرجل القوامة فالقرآن يوصيه بالإنفاق على زوجه من غير تقتير ولا تبذير، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: 7]، ويقول صلّى الله عليه وسلّم حينما سأله أحد الصحابة: ما حقُّ زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تُطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت...» (رواه أبو داود وابن ماجة)، بينما نجد في مجتمعات أخرى إلى يومنا هذا المرأة تتحمل النفقة على نفسها، وحتى إذا تزوجت فزوجها لا ينفق عليها، وهناك من الأزواج من لا ينفق حتى على أولاده، بل يترك الزوجة تتحمل مسئولية الإنفاق على نفسها وأولادها، فتجدها تعمل داخل البيت وخارجه، والزوج لا هم له إلا مصلحته الشخصية، وتصبح الزوجة مثل الرقيق يستخدمها في مصالحه فيرهقها ماديًا ومعنويًا.

– والله يا سيدتي هذا ما نشاهده في جلّ المجتمعات التي تدّعي أنها حررت المرأة وأعطتها ما تستحق من الحقوق، وأن الإسلام قد ظلمها إذ حبسها في البيت وأمر بضربها وأباح لزوجها أن يتزوج عليها ثانية وثالثة ورابعة.

– أجيبك يا سمية لأفند ترهاتهم وادعاءاتهم، أولاً فيما يخص معاملة المرأة قد سبق وقلت إن الإسلام أوصى الرجل بمعاملة زوجته المعاملة الحسنة وإكرامها، وهذا رسول الله ﷺ وهو الأسوة الحسنة للمؤمنين كان أحسن الناس أخلاقًا مع أزواجه،

وهو صلّى الله عليه وسلّم الذي قال: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم» (رواه أبو داود)، ولقد كان صلّى الله عليه وسلّم خيارهم لنسائه، فكان يداعب زوجاته ويلاعبهنّ ويخدمهنّ تواضعًا منه ورحمة بهن، ولقد سُئلت عائشة رضي الله عنها ما كان النبي يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله – أي في خدمة أهله – فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة، وكان إذا أرادت إحداهن شيئًا غير محذور أقرّها عليه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب بالبنات (تعني اللعب) فقال: ما هذا يا عائشة؟ قالت: خيل سليمان ولها أجنحة، فضحك» (رواه أبو داود)، وفي رواية لها قالت: «كنت ألعب بالبنات فيجيء صواحبي فكن ينقمعن من رسول الله ﷺ فيخرج رسول الله فيدخلن عليّ، وكان يسرّبهن إليّ فيلعبن معي» (رواه البخاري).

– الله، ما ألطفه ﷺ وما أحسن خُلقه!

– ومن لطفه وحسن معاملته لأزواجه يا بنات ما روته عنه السيدة عائشة كذلك قالت: «دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء، فاضطجع على الفراش، ودخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمار الشيطان عند رسول الله؟ قالت: فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: إنها أيام عيد».

– وكان يا سيدتي يتركها تشاهد الحبش وهم يلعبون في المسجد.

– نعم يا سمية، وفي ذلك تقول رضي الله عنها: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بالحراب في المسجد، وإنه ليسترني بردائه لكي أنظر إلى لعبهم، ثم يقف من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف» (رواه النسائي)، أكثر من هذا كان صلّى الله عليه وسلّم يخرج مع زوجته للرحلة، وربما يسابقها مداعبةً منه

وتأليفًا لقلبها، وقد قالت عنه عائشة رضي الله عنها: «سابقني النبي ﷺ فسبقته ما شاء، حتى إذا أرهقني اللحم سابقني فسبقني فقال: هذه بتلك» (رواه البخاري).

- صلى الله عليه وسلم، صدق إذ قال: «خياركم خيركم لنسائه، وأنا خيركم لنسائي» (رواه الترمذي)، كلٌّ هذا يدلُّ على مداعبته لأزواجه وإظهار ما يُكِنُّ لهنَّ من المحبة والود، وهذا كله من رحمته بهنَّ وتواضعه وإكرامه لهنَّ، وهذا هو السلوك الحضاري الذي تدعو إليه الأمم الراقية، فها هو محمد صلى الله عليه وسلم سبقهم إليه منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا.

- وكان الأسوة الحسنة للمسلمين من بعده حتى شهد جوستاف لوبون على منزلة المرأة في الإسلام يقول: إذا أردنا أن نعلم درجة تأثير بالقرآن في أحوال النساء وجب علينا أن ننظر إلى ما كانت عليه هذه الأحوال أيام ازدهار العرب، فقد روى المؤرخون أنه كان لهن من الشأن ما اتفق لأخواتهن حديثًا في أوروبا التي اقتبست من عرب الأندلس نبيل الطبائع وكريم العادات.

ذكرنا في فصل سابق أن الأوروبيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسية وما اقتضته من احترام المرأة، والإسلام حقًا لا النصرانية هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه، فأنت إذا نظرت إلى سيرة أمراء النصارى الإقطاعيين في القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئًا من الحرمة للنساء، وأنت إذا ما تصفَّحت كتب تاريخ ذلك الزمن علمت أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظًا نحو النساء قبل أن يتعلم النصارى من العرب أمر معاملتهن بالحسنى.

- سيدتي، في القرآن آية تأمر بضرب النساء، لو تفضلت ففسرتها لنا.

– لعلك يا سمية تعنين الآية التي يقول فيها الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: 34]، هذه الآية الكريمة لا تأمر بضرب النساء، وإنما ترشد الزوج إلى السلوك القويم الذي ينتهجه مع زوجه إذا نشزت، أي تمردت على أسرتها بأن ضيَّعت حقوق زوجها وترفعت عليه، أو كان لها سلوك مريب يضر بسمعة الأسرة وشرفها، فالزوج هنا مأمور بوعظها وإرشادها إلى ما فيه خير له ولها وللأسرة، وتأليف لقلبيهما، وإصلاح ذات البين، وكلُّ ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة علَّه يؤثر في نفسها فترجع إلى الجادة وتقوم بما عليها نحو زوجها وأسرتها بالمعروف تطبيقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228]، فإذا لم ينفع معها الوعظ والإرشاد استعمل الزوج المرحلة الموالية وهي الهجر في المضجع، أي لا يكون بالخروج من غرفة النوم أو حتى بمفارقة المضجع، بل ينام بجانبها مع هجره لها، وهذا فسره رسول الله ﷺ في حديث سيأتي ذكره، وهذه عقوبة نفسية؛ فلعلها حين ترى زوجها بجانبها وهو لا يبالي بفتنتها ترجع عن عصيانها وتقوم بواجباتها فتتواضع في معاملتها لزوجها وأسرتها، وتصلح سلوكها الذي أدى إلى الشقاق بينها وبين زوجها. فإذا لم يأتِ الهجر في المضجع بنتيجة وتمادت المرأة في تمردها على أسرتها تأتي المرحلة الثالثة وهي الضرب، وهكذا لا يكون الضرب في كلِّ حالة ولا مع كلِّ امرأة؛ لأن المرأة غير الشاذة يردعها الوعظ والإرشاد، والمغرورة بأنوثتها المتكبرة التي ترى أنها بمفاتنها تقهر الزوج يردعها الهجر في المضجع، فتبقى فئة قليلة من النساء اللاتي لا يردعهن إلا الضرب؛ فأباحه الله تعالى، وهو الخالق العالم بما يصلح بعض خلقه، فكان الضرب عند الضرورة حينما لا يجد الزوج مفرًّا من ذلك لتأديب زوجته، ولكن شرط ألا يكون ضربًا مبرحًا ومؤذيًا،

بل ضربًا خفيفًا كما قال عنه صلّى الله عليه وسلّم: «**استوصوا بالنساء خيرًا، فإنما هنّ عوانٌ عندكم وليس تملكون منهن غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقًا، ولنسائكم عليكم حقًا، فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذنّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن**» (رواه الترمذي)، وهذا الحديث هو تفسير للآية الكريمة التي سبق ذكرها .. وهناك الحديث الذي سبق وذكرت لكُنّ منه جزءًا، يقول فيه صلى الله عليه وسلم حينما سأله أحد الصحابة ما حقُّ زوجة أحدنا عليه؟ قال: «**أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت**» (رواه ابن ماجة وأبو داود)، يعني حتى وإن كان الضرب غير مبرح فلا يكون على الوجه، ثم نلاحظ هنا أمره صلّى الله عليه وسلّم بعدم التلفظ بما يجرح كرامة المرأة ولو بكلمة «قبّحك الله»، ثم التأكيد على ألا يكون الهجر أمام الناس، بل لا يكون إلا في البيت، وهذا كله من حسن الخلق ومحافظته على كرامة الزوجة، ثم هذه العقوبة غير الضارة تكون خيرًا من الطلاق وتشتيت الأسرة، فهي لا تضر بالمرأة ولا تضر بالأطفال ولا تضر بالأسرة كما يضر الفراق، ورغم ذلك فقد كان صلّى الله عليه وسلّم لا يحب ضرب النساء فيقول: «**لن يضرب خياركم**»، ويؤكد على عدم ضرب الزوجة فيقول:«**أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد، يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره**» (رواه البخاري).

وهكذا نرى أن رسول الله ﷺ يكره الضرب ولو للخادم أو العبد، وقد قالت عنه عائشة رضي الله عنها: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده ولا امرأة ولا خادمًا...» (رواه مسلم)، هذا رغم أنه كان متزوجًا عدة نساء فلم يؤثَر عنه أنه ضرب امرأة منهن.

– على ذِكر زوجات رسول الله ﷺ، فأعداء الإسلام يواصلونه صلّى الله عليه وسلّم على تعدُّد الزوجات.

– هذه يا بنات فرية افتروها عليه وعلى الإسلام، فكل الملل التي كانت قبل الإسلام عددت الزوجات، وكان العرب في الجاهلية أكثر المجتمعات تعددًا للزوجات، فلما جاء الإسلام وضع حدًّا للرجل لا يتعداه في الزواج، قال الله تعالى في ذلك: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ...﴾ [النساء: 3]، وهكذا نرى أن القرآن جعل الحد أربع لا يزيد الرجل على ذلك، فلما نزلت هذه الآية الكريمة أمر رسول الله ﷺ من كان له أكثر من أربع أن يسرح ما زاد على هذا العدد، ولقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال لرجل أسلم وتحته عشر نسوة: «اختر منهن أربعًا وفارق سائرهن» (رواه أحمد)، وهكذا نرى أن الإسلام عالج الفوضى التي لا ضابط لها، فلم يحرم التعديد تحريمًا كاملاً، ولم يترك الفوضى التي كانت تفعلها الأمم الأخرى في التعديد، بل قيّد ذلك ونظّمه بأن جعل للمرأة حقوقًا مصونة محفوظة؛ فكان نظام التعدد في الإسلام كما قال بعض العلماء واقعي موافق لفطرة الله التي فطر الناس عليها، ويستجيب لحاجات البشر في شتى الأماكن والأحوال والأزمان.

– سيدتي، لو سمحت الآية التي ذكرتها تقول: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: 3].

– هو كذلك يا رقية، فالإسلام فرض على الرجل العدل بين نسائه، وهذا العدل فيما يملك، وهو الطعام والكسوة والسكن والمبيت، أي يبيت عند الواحدة

مقدار ما يبيت عند الأخرى، فالعدل يكون في كلّ ما هو من الأمور المادية بدون أن يفرق بين الجميلة والأقل جمالاً والفقيرة والغنية وهكذا، فإذا خاف ألا يعدل وألا يفي بحقوق زوجاته جميعًا كان عليه حرام أن يجمع بينهنّ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: 3]، ولقد بيّن رسول الله ﷺ، وحذر من عدم العدل فقال: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل» (رواه أحمد).

- ما أعظم شريعة الإسلام وما أرحمها!

- إنها شريعة الله الحكم العدل المقسط، هناك آية أخرى في نفس السياق يقول فيها سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: 129]، هذه الآية فسّرها قوله صلّى الله عليه وسلّم، وهو أعدل الناس المعصوم، كان يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» (رواه أحمد)، وهذا الذي لا يملك الإنسان هو ميل القلب، فربما القلب يميل إلى واحدة أكثر من الأخرى، فلا حرج في ذلك، وما في القلب لا يعلمه إلا الله.

- هذا دليلٌ آخر على وجوب العدل بين الزوجات، وإلا اكتفى الرجل بزوجة واحدة، ولكن ما معنى ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ [النساء: 129].

- الميل الذي نهى عنه الله سبحانه وتعالى يا سمية هو الذي يكون معه هضم الحقوق كما سبق وقلنا في المطعم والملبس والسكنى والمبيت دون ميل القلب؛ فالقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن، لا يملكه الإنسان، وإنما الإنسان يملك الأمور المادية،

فيجب عليه أن يسوّي بين زوجاته إذا تزوج أكثر من واحدة حتى في السفر، فقد كان صلّى الله عليه وسلّم إذا أراد السفر أقرع بين نسائه؛ فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها معه، وكان يقسم لكلّ امرأة منهنّ يومها.

- سيدتي، هل للمرأة الحقّ أن تشترط على زوجها عدم التزوج عليها؟

- سؤال وجيه، أحييكنّ، الإسلام حدّد للرجل الزواج وقيّده بالقدرة على العدل في حالة التعدد الذي لا يتجاوز الأربع نسوة، ثم جعل من حقّ المرأة أن تشترط في عقد الزواج ألا يتزوج الرجل عليها إذا أرادت ذلك، وللزوج الالتزام بذلك الشرط والوفاء به إذا قبله، ففي حديث لرسول الله ﷺ قال: **«إنّ أحقّ الشروط أن توفوا ما استحللتم به الفروج»** (رواه البخاري)، كما جاء عنه ﷺ أنه قال وهو على المنبر: **«إن بني هاشم ابن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم من علي بن أبي طالب فلا آذن لهم ثم لا آذن ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما ابنتي بضعة مني، يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها»** (رواه مسلم).

فقد استنتج العلماء من هذا الحديث أن الزوج إذا اشترط لزوجته ألا يتزوج عليها لزمه الوفاء بالشرط، فإذا تزوج عليها فلها فسخ زواجها منه.

- ولكن سيدتي، لماذا أقرّ الإسلام تعدّد الزوجات ولم يلغِه كما ألغى الكثير من قوانين الجاهلية؟

- الإسلام لم يلغِ التعدد، ولكن وضع له حدًّا كما قلنا، ونظّمه وأزال عنه الفوضى، وجعل مبدأه العدل في كل ما يملك الزوج المؤهل لتعدد الزوجات، ومن وراء هذا التعدد الذي أقره الإسلام أهداف أولها حماية المرأة.

- كيف يكون تعدد الزوجات حماية للمرأة وحلٌ النساء ضد تعدد الزوجات؟

- أشرح لكُنَّ ذلك يا بنات، من الرجال من لا يردعهم عن المضي في شهواتهم شيء، فأباح لهم الإسلام التعدد، كما نظمه ليحمي المرأة من شرهم؛ لأن في المجتمعات التي لا تسمح بالتعدد يتخذ أمثال هؤلاء الرجال خليلات فيعاشروهن معاشرة الأزواج بدون أن يكون لهنَّ حقُّ الزوجات، وهذا امتهانٌ للمرأة، فتصبح متاجرة بجسدها وليس لها حماية قانونية ولا شرعية، فهي معرَّضة للطرد والتشرُّد، وبالتالي تكون في عداد النساء الساقطات، وإذا أنجبت يكون الأولاد لقطاء لا حقوق لهم؛ فيصبحوا منبوذين في المجتمع، وهذه أكبر جريمة، فأيهما أحسن: أن تصبح المرأة زوجة ثانية أو حتى رابعة ولها جميع الحقوق المادية والأدبية التي للزوجة الأولى مع الاعتراف بها شرعًا وقانونًا، مصانة موفورة الكرامة، أبناؤها شرعيون، لها ما عليها بالمعروف، وإذا مات الزوج ترث ويرث أبناؤها، أم تكون خليلة مبتذلة منبوذة في المجتمع، لا حقَّ لها من الرجل الذي يعاشرها ولا حق للأولاد الذين هم ثمرة تلك المعاشرة؟

- في هذه الحالة فالتعدُّد أحسن يا سيدتي.

- كذلك في حالة أن يكون النساء أكثر عددًا من الرجال، وخاصة في البلدان التي تقع فيها الحروب، يكون الحل في تعدد الزوجات حتى يكفل الرجل زوجتين أو أكثر، وهذا خيرٌ من أن تكثر العوانس، وربما تنتشر بكثرتهن الدعارة كما نرى ذلك في البلدان التي تمنع التعدد، وخير للمرأة أن تكون زوجة ثانية أو ثالثة كما قلنا لها جميع الحقوق كما لسابقاتها من أن تصبح عانسًا وحيدة لا كافل لها، وربما تضطرها الطبيعة البشرية إلى أن تصبح في عداد المومسات، وهذا أكبر شر.

- هناك حالة أخرى سيدتي، إذا كانت الزوجة مثلاً عاقرًا والرجل يحب الإنجاب.

- جازاكِ الله خيرًا يا رقية، هذه حالة اجتماعية كذلك يجب أن يكون لها حلٌّ مُرضٍ، وهو الزواج بزوجة ثانية، وتبقى الأولى ولها حقوق خير من أن تطلق وتُحرم من زوجها وأسرتها ولا ذنب لها، وهناك حالات أخرى مثل أن تصاب المرأة مثلاً بمرض يُعيقها عن معاشرة الزوج لها أو في سن اليأس، فكثيرٌ من النساء يتغيَّر مزاج الواحدة منهن، ويدفعها إلى عدم الإفضاء لزوجها، فالزوج في أي حالة من هذه الحالات إما أن يرتكب الحرام المنافي للأخلاق مع ضياع حق المرأة التي سيعاشرها في الحرام كما رأينا، أو أن يختار الطلاق من زوجته فيضيع حقها بدون ذنب ارتكبته ويلحقها الضرر أكثر مما تتضرر بوجود زوجة أخرى تشاركها في زوجها مع عدل الزوج في كل ما يملك كما سبق وقلنا، وهكذا نرى أن الإسلام أقرَّ تعدد الزوجات ونظَّمه، ووضع له حدودًا وتشريعات هي في صالح المرأة والأسرة، وبالتالي في صالح المجتمع الذي يتكون من أُسَر؛ فحمى به المرأة والرجل والمجتمع من الزنا وكلّ ما ينتج عنه من أوبئة ووجود لقطاء منبوذين.

- جازاكِ الله عنا خيرًا يا سيدتي، والله لو عرفت كلُّ امرأة لبيبة هذه الحكم التي من أجلها أقرَّ الإسلام تعدد الزوجات لشكرَت الله سبحانه وتعالى على ما حباها به من رعاية ورحمة وعطف حتى بوَّأها هذه المكانة وأوجد تشريعات تحميها وتضمن حقوقها.

- لذلك يا رقية كان واجب كل مسلم عالم بالشريعة أن يوضح تعاليم هذا الدين لمن لا يعلمه، وبذلك يكون قد نصر محمد ﷺ.

– هناك موضوع آخر سيدتي اتخذه السفهاء أعداء الإسلام ذريعة لمحاربته، وهو موضوع الميراث، فيقولون إن الإسلام ظلم المرأة؛ إذ أعطاها نصف ما أعطى الرجل.

– هذا موضوع مهم يا رقية، لقد سبق وقلنا يا بنات إن عند الأمم الأخرى التي سبقت الإسلام لم يكن للأنثى الحق في الميراث، نرى مثلاً عند اليونان الذكور يرثون والإناث لا إرث لهنَّ، بل كنَّ محرومات من كافة الحقوق المدنية، كذلك كانت عند عرب الجاهلية الذين بُعث فيهم الإسلام، لا يرث إلا الرجل لأنه هو الذي يدافع عن الأسرة ويشارك في الحرب لحماية القبيلة .. أكثر من هذا جاء الإسلام فوجد بعض القبائل العربية تعتبر الزوجة من تركة الزوج، إذا مات يرثها أقرباؤه مع تركته، فإما أن يتزوجها أحدهم أو يزوجوها من أرادوا، فكان يأتي الوراث فيلقي ثوبه على زوجة مورثه ثم يقول: "ورثتها كما ورثت ماله"، فإن أراد تزوَّجها أو زوجها من يحب، وأخذ مهرها لنفسه، أو حرَّم عليها الزواج حتى تفدي نفسها بمال.

– يا للفظاعة! هذا أكثر من الاسترقاق؛ إذ يجعلونها جزءًا من التركة فيرثونها كما يرثون الأنعام والمال والمتاع!

– نعم، هكذا كان حال المرأة قبل مجيء الإسلام، هكذا وجد الإسلام وضعية المرأة عند الأمم الأخرى وعند العرب؛ فأنزل الله القرآن على نبيِّه محمد ﷺ يحرم هذه المعاملة القاسية ويحررها من هذا الرق بقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ [النساء: 19]، ثم جعل لها حقَّ الإرث كأخيها الرجل في مال أبيها ومال زوجها ومال ابنها وأقربائها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

﴿وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: 7]، فأصبحت تحت ظل الإسلام، حرة لها الاستقلالية في نفسها وفي مالها، ولها كرامتها وحريتها الشخصية وحقوقها المدنية مثلها مثل شقيقها الرجل.

– والله هذا شيء عظيم، سبق الإسلام فيه كلَّ الملل والقوانين، والسؤال الآن يا سيدتي، ما هي الحكمة من إعطاء المرأة نصف نصيب الرجل في الميراث؟

– أحسنت يا سمية، هذا الموضوع بالذات جعله أعداء الإسلام سلاحًا لمحاربته واختلاق الافتراءات على هذا الدين الحنيف، فالإسلام يا بنات هو دين الله الذي بُعث به محمد ﷺ كدستور للمسلمين، قوانينه عادلة لا ظلم فيها ولا تحيزًا ولا حيفًا، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46] وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا**» (رواه مسلم)، فبالنسبة للميراث قسمه الله في كتابه العزيز، ولم يترك للبشر فيه قول، وجعل في أكثر الحالات نصيب المرأة نصف نصيب الرجل؛ ذلك لأنه كُلِّف بتحمل النفقة على الأسرة ورفع مستواها المادي، وبالتالي يصبح الرجل مسئولاً على الإنفاق على زوجته لقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: 34]، وجعل الإسلام حقَّ الزوجة على زوجها الإنفاق عليها لقوله صلّى الله عليه وسلّم حينما سأله أحد الصحابة: ما حقُّ زوجة أحدنا عليه؟ قال: «**أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت**» (رواه أبو داود)، كما كُلف الرجل بالنفقة على أمه إن كانت محتاجة، فقد جاء في الحديث أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ قائلاً: «من أحقُّ الناس بصحبتي يا رسول الله؟ فقال: أُمك، قال: ثم من؟ قال: أُمك، قال: ثم من؟ قال: أمك» (رواه البخاري)، فهو يؤكد له ثلاثًا أن يرافق أمه ليقوم بكلّ ما تحتاجه من

ضرورات الحياة، وكلفه بالإنفاق عليها وعلى وأخواتـه إن كـان الأب متوفيًـا أو عاجزًا، وكذلك الإنفاق على بناته وأبنائه الذكور القصر، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: 31]، فحرم قتل البنت أو الابن خشية الفقر، ووعد الآباء بالرزق، ورسول الله ﷺ يؤكد على النفقـة على الإناث فيقول: «**من كان له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وضرائهن وسـرائهن أدخله الله الجنة برحمته إياهن**» (رواه أبو داود)، كما قال تعالى يوصي الرجال بالنفقة: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَـاهُ﴾ [الطلاق: 7]، ورسول الله ﷺ يتوعد من لا ينفق على من هم تحت كفالته فيقـول: «**كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت**» (رواه أحمد وأبو داود)، ويجعل النفقة على الأسرة أعظم عند الله من النفقة في سبيل الله، فيقول صلى الله عليه وسلم: «**دينار أنفقتـه في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته علـى أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك**» (رواه مسلم)، فالإسلام كلّف الرجـل بالنفقة على أهله المحتاجين، وأولهم المرأة، زوجة وبنتًا وأمًا وأختًا، وحتى عمّة وخالة، وكل قريبة ليس لها عائل، فهل من العدل أن تُعطَى للمرأة من الميراث مثل ما يُعطَـى الرجل، وهي غير مسئولة ولا مكلّفة بالإنفاق حتى على نفسها؟ فقـد أعطاهـا الله سبحانه وتعالى نصف ما أعطى للرجل، ولها أن تدخره أو تتصرف فيه كما تشـاء، وتنفقها على غيرها، بينما على الرجل الذي أخذ النصفَين أن ينفقه على أسرته وعلى من يعولهم، فهو مسئول أمام الله وأمام القانون الإسلامي على من هـم في كفالتـه، وأكثر من هذا لقد حرّضه الإسلام على النفقة على كل محتاج في المجتمع وأولهم المرأة، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سـبيل الله أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل**» (رواه البخاري)، وهكذا شجع الإسلام الرجل على الإنفاق على المحتاجين وعلى من يعول، فأعطاه من الميراث ما يعينه علـى ذلـك، ثم

وعده بالأجر، وبأن يخلف له ما أنفق، وفي ذلك يقول صلّى الله عليه وسلّم: «**ما من يوم يصبح فيه إلا ملكان ينزلان فيقول: اللهم أعطِ منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا**» (رواه أبو داود)، وأكرم الله المرأة وحباها بأن جعل نفقتها على الرجل، وأعطاها نصف ما أعطاه، ولم يكلفها ولا فرض عليها أن تعول أي كائن إلا عن طيب نفس؛ فيكون لها صدقة، ولو أعطته لأقرب الناس إليها.

- الله أكبر، ويقولون إن الإسلام لم يعطِ المرأة حقها، ويفترون على الله وعلى رسوله الكذب،

- سيدتي، حدثينا عن زواج رسول الله ﷺ، هذا الزواج الذي اتخذه أعداء الإسلام علة لمهاجمته ﷺ.

- تعنين زواجه من عدة نساء؟ نعم، كان هذا الموضوع ولا يزال شبهة يتخذها أعداء الإسلام للطعن فيه وفي شخصية الرسول الكريم، ونقول لهم إن زواجه ﷺ بعدد من النساء كان لحكمة بالغة، مع أنه كان زوجًا ملؤه الحنان والإحسان والرأفة والسياسة الرشيدة، وقبل أن أحدثكنّ عن تعدُّد زوجاته أروي لكُنّ كيف كان سلوك محمد بن عبد الله قبل أن يُبعث رسولاً وقبل زواجه الأول، لقد كان سليم الجسم قوي البدن جميل المحيّا وسيمًا، ومع ذلك كان يتحلى بالطهر والعفة من كلّ دنس؛ فقد صانه الله قبل بعثته من كلّ سوء ومن كل دنيّة، حتى عُرف بين قومه بالعفة والطهارة والصدق والأمانة؛ فلقّبوه بـ«الأمين» إلى أن بلغ الخامسة والعشرين من عمره؛ فتزوج من السيدة خديجة بنت خويلد التي تكبره بخمسة عشر عامًا، وكانت من أشرف نساء قريش وأطهرهن حتى لُقبت بـ«الطاهرة»، وكانت ذات مال وجمال وحسب ونسب، تزوجته بعد أن خطبها كثير من أشراف قريش، وأبت إلا أن تتزوج أشرف الشباب وأطهرهم وأعفهم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؛

فعاش معها خمسًا وعشرين عامًا، ولم يتزوج عليها، رغم أن تعدد الزوجات كما قلنا كان شائعًا عند العرب ولم يكن له حد، وعاش مع زوجته حياة سعيدة، وفيًّا لها، ورُزق لهما زينب وأم كلثوم والقاسم وعبد الله وفاطمة ورقية، ولقد كانت خديجة الزوج الودود الحانية المحبة لزوجها الساهرة على راحته وإسعاده، بينما كان هو مشغولاً بالتعبد والتفكر، فكان يخرج إلى غار حراء ليمكث طيلة شهر رمضان متعبدًا متبتِّلاً، لا يشغله شيء عن ذلك، رغم أنه كان في ريعان شبابه، فهل يعقل يا بنات أن يكون رجل هذا سلوكه مغرمًا بالزواج من النساء؟

- والله هذا افتراء عليه يا سيدتي، سببه الحقد والتعصب قديمًا وحديثًا.

- نعم يا بنات.

- سيدتي، على ما أعلم أن رسول الله ﷺ لم يتزوج على السيدة خديجة حتى توفيت، ولقد حزن عليها حزنًا شديدًا، وسمَّى العام الذي توفيت فيه «عام الحزن».

- هو كذلك يا سمية، توفيت رضي الله عنها فتركته حزينًا متأثرًا شديد التأثر بفراقها؛ لأنها أول من صدق بالدين الذي بعثه الله به، ولم تمنعه شيئًا من مالها ولا من نفسها، عاش معها خمسًا وعشرين سنة ملؤها السكن والمودة والرحمة والوفاء والسعادة، واستمر على وفائه لها حتى بعد موتها، فكان يكرم أقرباءها وصديقاتها، ولقد قالت السيدة عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا ذُكر خديجة أثنى وأحسن الثناء عليها، فغِرتُ يومًا وقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين، قد أبدلك الله خيرًا منها، فقال: **«ما أبدلني الله خيرًا منها قد آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني أولادها إذ حرمني أولاد النساء»** (رواه الحاكم)، وفي رواية أخرى تقول: كان إذا ذبح الشاه يقول: «أرسلوا إلى أصدقاء

خديجة»، وتقول: «كان يُكثر ذِكرها، وربما ذبح الشاة ثم قطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة»، وهكذا كان وفيًّا لزوجته الأولى قبل بعثته وبعد البعثة وحتى بعد وفاتها وزواجه بغيرها، ونرى أنه حين بعثه الله بالرسالة أسرع مشركو قريش بتكذيبه، ونعتوه بكل النعوت الكاذبة، ولكن لم يتهموه في طُهره وعفَّته لِما عرفوه عنه من اكتفائه بزوجة واحدة، رغم أن الرجال في مجتمعه يُكثرون من تعدد الزوجات ولم يكن للتعدد حد؛ فللرجل أن يتخذ ما شاء من النساء زوجات وخليلات.

- يا سيدتي، كما قلتِ، إذا كان صلَّى الله عليه وسلَّم قبل البعثة مشتغلاً بالعبادة والتفكر في غار حراء، فكيف كان شغله بأداء الرسالة بعد نزول الوحي عليه إذن؟

- هذا هو الذي يجب أن يفكر فيه كلُّ عاقل منصف، فالرسالة العظيمة التي كُلف بها رسول الله ﷺ هي مهمة شاقة تستوجب منه التفرغ والاشتغال ليلاً ونهارًا حتى يؤدي ما عليه، وهذا ما كان يفعله صلَّى الله عليه وسلَّم، كان يتلقى الوحي من جبريل ثم يبلغه لأصحابه فيعلمهم تلاوته ويؤمهم في الصلوات الخمس، ويكثر من التهجد وقيام الليل، يبيت راكعًا ساجدًا حتى تتورم قدماه، ويطيل السجود حتى يظن من يراه أنه قُبض، وكان يُرهق نفسه في نشر الدعوة حتى أنزل الله عليه الوحي يدعوه الرفق بنفسه؛ فقال له سبحانه: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: 1- 2]، كما كانت غزواته كثيرة، لا يعود من غزوة حتى يخرج إلى أخرى، يقود بنفسه الحرب، كما كان يستقبل الوفود ويمضي المعاهدات. وباختصار كان صلَّى الله عليه وسلَّم في نشاط مستمر، مشغولاً بأمر الدعوة والدولة، فمن أين له الفراغ الذي يجعله يفكر في تعدد الزوجات لأجل المتعة والشهوات، خاصة وأنه لم يفكر في ذلك قبل البعثة؟!

– رجل مشغول بالعبادة والدعوة إلى الله وإبلاغ الرسالة، يقود الحروب ليذود على حوض الدولة التي هو بصدد بنائها، يرجع إليه الناس في المشاكل التي تقع لهم أو بينهم، كما يستعينون به لقضاء حوائجهم، يؤمُّهم في الصلوات الخمس، يبيت قائمًا حتى تتورم قدماه إلى غير ذلك من المسئوليات الملقاة على عاتقه، حاشا لله أن يكون هذا الرجل همُّه الشهوات وتعدُّد الزوجات، إذن لابد وأن هناك حكمة أو حكم كثيرة جعلته يتزوج من عدة نساء، فهلا بيَّنتِ لنا هذه الحكم يا سيدتي حتى نردَّ على كلِّ من يفتري على سيد الخلق وأكرم الناس حبيبنا محمد ﷺ إمام المرسلين وسيد ولد آدم أجمعين؟

– نعم يا رقية، كلُّ من يطَّلع على سيرة رسول الله ﷺ ويقرؤها بعيدًا عن التعصب والحقد يعرف الحِكَم من تعدُّد زوجاته، ويصل إلى الحقيقة؛ فيفنِّد افتراءات المغرضين، ولقد فنَّدها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز حين قال اليهود إن هذا الرجل ﷺ لا هم له إلا النساء، ولو كان نبيًّا لشغله أمر النبوَّة عن النساء، فردَّ عليهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ...﴾ [الرعد: 38]، هذه الآية الكريمة تدلُّ على أنَّ الأنبياء الذين سبقوه عددوا الزوجات، وهذا أمر لا يخالف تبليغ الرسالة، بل تبليغ الدعوة هو السبب في تعدُّد الزوجات؛ فرسول الله ﷺ أُمِرَ أن يعلم الرجال والنساء هذا الدين وأحكامه وتشريعاته، وهناك من التشريعات التي جاءت خاصة بالنساء مثل المتعلقة بالطهارة والحيض والنفاس ومعاشرة الزوج، فلا يستطيع رجل أن يبلغها للنساء ويوضحها، وامرأة واحدة لا تستطيع أن تبلغها لكلِّ النساء وفي جميع القبائل، لذلك يجب أن يكون عددًا من النساء ومن قبائل متعددة حتى تنتشر أحكام الدين وتشريعاته الخاصة بالنسبة للنساء، فكانت هذه حكمة من الحكم. كذلك فرسول الله ﷺ حين عدَّد الزوجات وكنَّ من عدَّة قبائل، هذه المصاهرة لكلِّ قبيلة تجعل من القبيلة حليفة لصهرها، فيقبل العدد الكبير من أفرادها على الدخول في

الإسلام ومآزرة صهرها والوقوف إلى جانبه، وحتى وإن لم يكن ذلك، فتكف شرَّها وتخفِّف من حربها عليه، كما أن معاملته لزوجاته وإكرامهنَّ والعدل في معاملتهن وهو الأسوة الحسنة للمؤمنين كان درسًا للرجال من حوله ليقتدوا به في معاملة المرأة التي عانت قبل مجيء الإسلام من ويلات الظلم والاحتقار والاستعباد والإهانة، هذه بعض الحكم التي جعلته صلّى الله عليه وسلّم يعدِّد الزوجات في مجتمع ليس للتعدد فيه حد، وهناك حكم أخرى تُستخلص من الحديث عن كل زوجة من زوجاته صلّى الله عليه وسلّم.

– لو تفضلت سيدتي حدثينا عن زوجاته، وكيف تم زواجه من كلٍّ واحدةٍ منهن؛ وبذلك نعرف سبب زواجه من كلٍّ واحدةٍ منهن.

– نعم، لقد مكث رسول الله ﷺ بعد وفاة خديجة رضي الله عنها ثلاث سنوات بدون زواج، وكان قد جاوز من العمر خمسين سنة، وهو عمر لا يتزوج فيه الرجل حبًّا في الشهوات، في هذا السن تزوج صلّى الله عليه وسلّم من السيدة سودة بنت زمعة أرملة السكران بن عمران، لقد كانت من النساء اللاتي سبقن في الدخول للإسلام مخالفة لقومها، وقد تحملت وقد تحملت اضطهادًا كبيرًا هي وزوجها من أهلهما مما اضطرهما إلى أن يهاجرا إلى الحبشة الهجرة الثانية، ثم عادا إلى مكة حيث توفي زوجها، وقد تقدمت بها السن؛ فأصبحت وحيدة لا تستطيع الرجوع إلى أهلها لأنهم على شرك وهي مسلمة، فقد تلاقي منهم سوء المعاملة ومحاولة إرجاعها عن دينها، وكانت شريفة ذات حسب ونسب، فخطبها رسول الله ﷺ ليكرمها ويرفع عنها ما كانت فيه من الضيم، فكان زواجه منها إيواءً لها بعد فراق زوجها وكبر سنها، وجزاء لصبرها على أذى قومها، والتمسك بدينها، وهجرتها وزوجها بدينهما إلى الحبشة، وكان زواجه منها صلّى الله عليه وسلّم قبل الهجرة بسنتين، وبعد خمس

سنين تقدمت بها السن؛ فوهبت ليلتها لعائشة رضي الله عنها، وظلّت رضي الله عنها عند رسول الله ﷺ حتى توفي عنها مع باقي زوجاته.

أما السيدة عائشة رضي الله عنها فقد تزوجها ﷺ إكرامًا لأبيها أقرب الصحابة منه ورفيقه في الهجرة؛ فازداد قربه منه بهذا الزواج، وصار يدخل بيته في كل وقت بدون حرج، فبيت رسول الله ﷺ أصبحت فيه ابنته، وهو لرسول الله ﷺ بمثابة الوزير الأول؛ فأصبح هذا الزواج يخوّل له دخول بيت الرسول ﷺ كلما دعت الحاجة إلى مقابلته ولا حرج في ذلك، لقد كانت السيدة عائشة مخطوبة لرجل مشرك اسمه جبير بن مطعم، فلما أصرَّ على الكفر وقعت بينهما الفرقة، فتزوجها رسول الله ﷺ، وكان عمره خمس وخمسين سنة، وبنى بها بعد الهجرة إلى المدينة، وهي البكر الوحيدة التي تزوجها صلّى الله عليه وسلّم.

الزوجة الرابعة هي حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كانت زوج خنيس بن حذافة، استشهد في غزوة بدر، فعرض سيدنا عمر رضي الله عنه على أبي بكر الزواج منها فلم يجبه، ثم على عثمان بعد وفاة زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ فسكت عنه لأنه كان ينوي الزواج من أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، فحزَّ ذلك في نفس عمر رضي الله عنه وشكاهما إلى رسول الله ﷺ؛ فقال له رسول الله ﷺ: إن حفصة ستتزوج من هو خير من عثمان وأبي بكر، وخطبها صلّى الله عليه وسلّم، وتزوجها في السنة الثالثة من الهجرة؛ فكان هذا الزواج تعويضًا للسيدة حفصة عن زوجها الذي استشهد في سبيل الله، وتكريمًا لسيدنا عمر رضي الله عنه الذي نصر رسول الله ﷺ أيام المحنة في مكة، وجدَّ في نشر الإسلام وخدمة الرسالة إلى جنبه، وكان الوزير الثاني بالنسبة له؛ فكان هذا الزواج تشريفًا لعمر رضي الله عنه وكفالة لزوجة الشهيد.

– أما زواجه من السيدة زينت بنت خزيمة رضي الله عنها فهو مواساة لها وكفالة لأبنائها وجبرًا لمصيبتها؛ فقد استشهد زوجها عبيدة بن الحارث في غزوة بدر لما خرج للمبارزة، وتركها وقد بلغت الستين من عمرها، ولم تكن ذات جمال، ولكنها كانت سيدة كريمة سخية تُدعى «أم المساكين» لحبها وعطفها على المحتاجين، تزوجها رسول الله ﷺ سنة ثلاث من الهجرة، وتوفيت رضي الله عنها بعد زواجها من الرسول ﷺ بفترة قصيرة.

– زوجته السادسة أم سلمة هند بنت أبي أمية، وقد كانت متزوجة بابن عمها عبد الله بن عبد الأسد، وكانا من الذين هاجروا إلى الحبشة ثم إلى المدينة بعد الرجوع إلى مكة، فقد استشهد زوجها بجراح أصيب بها في غزوة أحد، وقد خطبها بعض الصحابة بعد موت زوجها فأبت لكبر سنها وكثرة أولادها؛ فتزوجها رسول الله ﷺ فكفلها وكفل أبناءها، وكان هذا الزواج مكافأة على تحملها مشقة الهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وما لاقته من اضطهاد أهلها وأهل زوجها وثباتها على دينها، كما كان هذا الزواج إكرامًا لزوجها الشهيد بكفالة أولاده.

ثم كان زواجه ﷺ من السيدة زينب بنت جحش فيه دروس للمجتمع المسلم وتشريعات تميزه عن المجتمع الجاهلي، السيدة زينب بنت حسب ونسب، فهي شريفة بني هاشم، أمها عمّة رسول الله ﷺ، والمجتمع في قريش مجتمع طبقي، وللقضاء على الطبقية أمر الله سبحانه وتعالى محمد ﷺ أن يخطب زينب إلى مولاه زيد بن الحارثة، وهو من السبي في الجاهلية، اشترته السيدة خديجة رضي الله عنها ووهبته لرسول الله ﷺ؛ فتبناه، وكان عمر زيد ثماني سنوات، ورغم أن رسول الله ﷺ حرَّره بعد ذلك فهو في نظر المجتمع أقل منزلة من الأحرار الآخرين، ولم تقتنع زينب ولا أهلها بهذا الزواج ولم تقبله، وهي من أعلى القبائل العربية، وزيد كان عبدًا، حتى نزل قول الله

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 36]، فلما سمعت زينب ووليُّها ما نزل فيهما من قرآن قبلت هذا الزواج استجابة لله ولرسوله، ودفع رسول الله ﷺ مهرها، ولم يكتب لهذا الزواج السعادة، فزينب كانت مترفعة على زيد متعالية عليه، تنظر إليه على أنه محرَّر وهي حرة شريفة، فكان هذا سبب خلاف مستمر بين الزوجين، ولم يكن هناك انسجام بينهما؛ مما جعل زيد يتذمر من معاملة زوجته له، فيأتي الرسول ﷺ يشكوه زينب ويخبره بالخلافات القائمة بينهما، وكيف أنها تُسمعه كلامًا لا يحبه، وتتعالى عليه؛ فيقول له رسول الله ﷺ: «أمسك عليك زوجك، واتقِ الله»، في ذلك الوقت كان نظام التبني منتشرًا في المجتمع الجاهلي، وكانوا يحرمون زوجة الابن بالتبني على من يتبناه إذا مات عنها زوجها أو طلقها ، فنزل التشريع بإبطال التبني بقوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: 5]، وكان في هذا كذلك رفع من شأن الادعاء ومكانتهم لأنه فيه إثبات لنسبهم، ثم نفى الله سبحانه وتعالى عن رسوله التبني، لأنهم كانوا يقولون زيد ابن محمد؛ فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: 40].

ونرجع إلى الزوجين غير المنسجمين زيد وزينب، أصبح الشقاق بينهما، ولم تنفع وصية الرسول ﷺ لزيد بأن يُمسك زوجته، فكان لابد من الطلاق؛ لأن حياة الزوج مع زوجته أصبحت لا تطاق، فيطلق زيد زينب، ويزول الأمر من عند الله لرسوله ﷺ أن يتزوج زينب التي كانت زوجة دعيِّه زيد لكي يقع التشريع، ويرفع الله

هذا الزواج الحرج عن المسلمين كما جاء في قوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: 37]، وتم هذا الزواج؛ فكان جائزة لزينب التي امتثلت لأمر الله أولاً وتزوجت من رجل كان عبدًا وهي من أشرف بيوت قريش طاعة لله ولرسوله، كما كان هذا الزواج تشريعًا عمليًّا اجتُثت به عادة كان معمولاً بها في الجاهلية، وهي عادة التبني وتحريم زوجة المتبنَّى، وقد نزل القرآن الكريم يوضح هذا كله ويُبينه ليلجم أفواه المفترين من اليهود والمنافقين وكلّ من حدثتهم وتحدثهم أنفسهم وشياطينهم من أن رسول الله ﷺ أحب زينب، وكان يخفي في نفسه هذا الحب، فلما طلقها زيد تزوجها. حاشا لله، فزينب ابنة عمة رسول الله ﷺ، وهو الذي خطبها لزيد وأمرها بالزواج منه وأعطى مهرها، ولو كان أحبها أو معجبًا بجمالها لتزوجها وهي بكر قبل أن تتزوج دعيَّه، فما الذي يمنعه من ذلك حتى يخفي هذا الحب في نفسه ولا يبديه ويخطبها لزيد وهي كارهة أن تتزوجه؟! هذا كله افتراء على رسول الله ﷺ، والحقيقة أن هذا الزواج كان بأمر من الله وطاعة لله وتطبيقًا لتشريعاته، وهذا القرآن أكبر دليل؛ إذ يظهر الحقيقة ويبرئ المعصوم من كل الأراجيف بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: 37]، فهذا ما كان يقوله رسول الله ﷺ لزيد حينما كان يأتيه فيشكوه زينب، فزيد يريد طلاق زينب، ولكنه يخفي ذلك في نفسه خشية كلام الناس، وهذا ما قاله بعض العلماء، ثم يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: 37].

وهكذا تم زواج رسول الله ﷺ من زينب بأمر من الله عز وجل لإبطال تشريع الجاهلية وإقامة تشريع عام للمسلمين جميعًا، وفي الحديث: كانت زينب بنت جحش رضي الله عنها تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى فوق سبع سماوات (رواه البخاري).

أما زوجته أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، فقد دخلت للإسلام، وتزوجت عبيد الله بن جحش، وفرّت بدينها معه إلى الحبشة، ولكن زوجها دخل النصرانية هناك وارتد عن الإسلام، وحاول معها أن تتبعه، ولكنها أبت، وبقيت متشبثة بدينها وعقيدتها بالرغم من خوفها وغربتها، فأبوها أبو سفيان بن حرب وأمها هند كانا مشركَين عدوَّين للإسلام وأهله، ولكن أم حبيبة كانت ثقتها بالله كبيرة، فالله معها لأنها خرجت فارة بدينها سيحفظها من كل سوء ويجازيها أحسن جزاء، ومات زوجها بالحبشة بعد أن فرق الإسلام بينهما، وسمع رسول الله ﷺ بقصتها؛ فأراد أن يخفف من آلامها ووحدتها ويجازيها على صبرها على مصيبتها وثباتها على دينها؛ فبعث في خطبتها إلى النجاشي؛ فخطبها له، وأعطى مهرها، وبعث بها إلى رسول الله ﷺ، فدخلت أم حبيبة المدينة يوم فتح خيبر مع خالد بن سعيد سنة سبع من الهجرة، وهذا الزواج أوى رسول الله ﷺ إليه امرأة مؤمنة ضحّت من أجل الله ورسوله بأهلها ووطنها وزوجها؛ فكانت من المحسنات، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان!

- في غزوة بني المصطلق انتصر رسول الله ﷺ على الحارث بن ضرار سيد قومه، فقتل منهم وأسر منهم، وممن أسر جويرية بنت الحارث، وكانت متزوجة

مسافع بن صفوان المصطلقي الذي قتل في هذه الحرب كافرًا، وأصبحت جويرية من نصيب ثابت بن قيس، فكاتبها على سبع أواقٍ من الذهب إلى الرسول ﷺ تريد منه أن يعينها حتى تصبح حرة، فلما دخلت عليه قالت له: يا رسول الله، أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من الأمر ما لا يخفى عليك، فقال لها النبي ﷺ: «هل لك في خير من ذلك؟» قالت: ما هو يا رسول الله؟ قال: «أقضي عنك كتابك وأتزوجك» قالت: نعم، قال: قد فعلت. فلما سمع الصحابة بخبر زواج رسول الله ﷺ من جويرية أعتقوا الأسرى الذين كانوا عندهم، وقالوا: هؤلاء أصهار رسول الله ﷺ، فكيف تبقى سباياهم في ملكنا؟ فكان هذا الزواج مباركًا على عشيرة جويرية إذ أعتق أسراهم، كما كان هذا الزواج درسًا في مجتمع يحتقر الأسيرة ولا يتزوج بها، فكان صلّى الله عليه وسلّم قدوة للمسلمين من بعده، وبعد هذا الزواج أسلم قومها وانتهت عداوتهم للمسلمين، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأينا امرأة كانت أعظم بركة على قومها من جويرية؛ أُعتق في سببها مائة أهل بيت من بني المصطلق» (رواه أحمد).

– أما زواجه من صفية بنت حيي بن أخطب كان بعد غزوة خيبر، لقد تزوجت السيدة صفية قبل رسول الله ﷺ من رجلين: الأول سلام بن مشكم، والثاني كنانة بن الربيع، وفي غزوة خيبر أُسرت صفية بنت حيي، ولما استأذن دحية الكلبي من رسول الله ﷺ أن يأخذ جارية من الأسيرات وأذن له أخذ صفية، فجاء نفر من الصحابة إلى رسول الله ﷺ وقال له: هذه الجارية بنت سيد بني قريضة وبني النضير، فلا تصلح إلا لك، فقال صلّى الله عليه وسلّم لدحية: «خذ غيرها مكانها»، وتزوجها رسول الله ﷺ بعد أن خيَّرها بين أمرين: إما أن يتزوجها أو يعتقها ويردَّها إلى قومها، فاختارت أن تتزوج رسول الله ﷺ على أن تعود إلى قومها، وكان هذا الزواج سببًا في دخول عدد من قومها في الإسلام بعد ذلك.

– عرض العباس بن عبد المطلب على رسول الله ﷺ أن يتزوج ميمونة بنت الحارث، وقد تزوجت ميمونة مرتين، وعندما مات زوجها الثاني تزوجها رسول الله ﷺ بطلب من عمه العباس، وهي التي وهبت نفسها له صلّى الله عليه وسلّم؛ فقبل هذا الزواج؛ لأنه رأى فيه مصلحة كبيرة لنشر الإسلام، فالسيدة ميمونة لها روابط مع أشراف العرب، فأختها أم الفضل زوجة العباس عم النبي ﷺ، وأختها لبابة أم خالد بن الوليد، وأختها عصماء زوجة أبي بن خلف الجمحي، وأختها عزة كانت زوجة زياد بن عبد الله الهلالي، كما كان أخواتها لأمها: أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب، وسلمى بنت عميس زوجة عم رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب، وسلامة بنت عميس زوجة عبد الله بن كعب بن منبه الخثعمي، وكان هؤلاء أسياد قومهم ولهم مكانة اجتماعية عالية، فكان هذا الزواج سببًا في نشر الإسلام أكثر، تزوج بها صلّى الله عليه وسلّم في أواخر السنة السابعة من الهجرة وقد تقدمت بها السن، وهو آخر زواج للرسول ﷺ، وهي التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ....﴾ [الأحزاب: 50]، وأسلم بعد زواجها كثيرٌ من قومها منهم خالد بن الوليد ابن أختها، فكان زواجه صلّى الله عليه وسلّم منها كفالة لها وإرادة لإسلام أقاربها واستجابة لطلب عمه العباس الذي أراد كذلك أن يتشرف بمصاهرة النبي ﷺ، وكان عبد الله بن العباس يبيت عند خالته ويتعلم من رسول الله ﷺ القرآن والسنة حتى لقّبه صلّى الله عليه وسلّم بـ«حبر الأمة».

– أما مارية القبطية فقد أهداها المقوقس حاكم مصر للنبي صلى الله عليه وسلم ردًّا على خطابه له ودعوته للدخول في دين الله، وقد قبل صلّى الله عليه وسلّم هديته المقوقس تهدئة للعلاقات مع مصر التي كانت تحت حكم الرومان آنذاك، وذلك تمهيدًا

لفتحها كما بشّر بلملك أصحابه بأن الله سيفتح لهم مصر من بعده، وهـذا مـا تم في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. ومارية هي التي أنجبت للنبي ﷺ آخـر أولاده إبراهيم، وكانت أول من أنجبت له من زوجاته منذ خديجة.

وهكذا ترَين يا بنات أن زواج الرسول ﷺ من عدة نساء كان لأجل مهمّـات جليلة وليس حبًّا في النساء أو طلبًا للشهوة واتباع للهوى، وإنما كان لأسباب كـثيرة منها أسباب اجتماعية وأخرى سياسية وأخرى تشريعية، وقد قـال عليـه الصـلاة والسلام: «**ما تزوجت شيئًا من نسائي ولا زوجت شيئًا من بناتي إلا بوحي جاءني بـه جبريل عن ربي عز وجل**»، وهذه الزيجات — كما رأين - تجلّت فيها أسمـى معـاني الرحمة والعطف والمكافأة والإحسان للمرأة، كما تجلّت فيها الحكمة وسمـو أخلاقـه ونبله صلّى الله عليه وسلّم، وهو الذي قال له الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَـى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: 4].

- سؤال أخير يا سيدتي: لماذا حينما نزلت الآية التي تحدد عدد الزوجات وتمنع أكثر من أربع زوجات أمر رسول الله ﷺ كلّ مَن عنده أكثر من أربع زوجـات أن يمسك أربعًا ويسرح الأخريات، بينما أبقى صلّى الله عليه وسلّم جميع زوجاته؟

- سؤال وجيه يا رقية أجيبك عنه: نزلت الآية التي يقول فيهـا الله سـبحانه وتعـالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ...**﴾ [النساء: 3] في آخر السنة الثامنة للهجرة؛ فطبقها المسلمون، وطلّق كلّ من كان لـه أكثر من أربع ما زاد على النسوة الأربعة، أما بالنسبة لرسول الله ﷺ كان زواجه كما سبق وقلنا لأسباب تشريعية واجتماعية وسياسية، ثم زوجاته أمهات المؤمنين بقولـه

سبحانه وتعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ...﴾ [الأحزاب: 6]، فقد حرمهنَّ الله على المؤمنين وحرم على المؤمنين الزواج منهن بقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 53]، فإذا طلقهن الرسول ﷺ لا حقَّ لهنَّ في الزواج من بعده أبدًا، بينما كلُّ امرأة تُطلق من زوجها تستطيع أن تتزوج غيره، ومن هنا يكون بالنسبة لرسول الله ﷺ إمساك أربع وطلاق البقية ظلمًا لهن، والله حرم الظلم على نفسه، وجعله بين المسلمين محرمًا، ثم هنَّ اخترن حب الله ورسوله لما خيَّرهن الرسول ﷺ بين متاع الدنيا وحب الله ورسوله واليوم الآخر حين أمره الله سبحانه وتعالى أن يخيرهن بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 28- 29]، فكان أعظم جزاء لهنَّ أن حرَّم الله على رسوله طلاقهن والزواج من غيرهن؛ لأن الإسلام قد انتشر في الجزيرة العربية وقويت دولته، فلم تعد هناك مصلحة في زواجه، ولقاء هذا، وكما استُثني الرسول ﷺ لتلك الأسباب الوجيهة من مفارقة نسائه، حُرم عليه — استثناء أيضًا — الزواج بغيرهن، فبينما أُبيح لغيره من الرجال إن طلق زوجاته أو إن مُتنَ، بأن يتزوج بغيرهن ثم غيرهن دون قيد في العدد غير عدم الجمع بين أكثر من أربع، فإن هذا لم يكن متاحًا للرسول، فلم يكن له أن يتزوج بغيرهن حتى وإن متن جميعًا، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى:

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: 52]، فكان ذلك الاستثناء قيدًا لا منحًا.

– صدق الله العظيم، جازاك الله عن رسوله وعنا خيرًا يا سيدتي، لقد زودتنا بمعلومات قيمة نستطيع أن ندافع بها عن ديننا الحنيف، وأن نفنِّد أراجيف الأعداء، وننصر حبيبنا رسول الله ﷺ.

ملحق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40].

هذه الآية الكريمة نزلت في هجرة الرسول ﷺ التي كانت بداية لجولة فاصلة بين الإسلام والذين تصدروا له بالعداوة والبغضاء والمكائد والحروب من أهل قريش، فالإسلام لما هاجر به الرسول ﷺ وصحابته من مكة إلى المدينة لم يصبح في دار الهجرة بمأمن من كيد الأعداء وحقد المتعصبين وتآمر عصابات اليهود والمنافقين الذين تصدوا للإسلام بعد الهجرة بكل ما يملكون من خبث ودسائس وخداع ومراوغة، وكانت الجبهة الجديدة التي فتحها هؤلاء أخطر من الجبهة مع المشركين في مكة، وبقيت هذه الجبهة مفتوحة إلى يومنا هذا؛ لأن هَم اليهود هو التخلص من الإسلام كما تخلصوا قديمًا من أنبيائه، فكذبوهم وحاربوهم وقتلوهم، وقد قال الله سبحانه وتعالى في هذا: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87].

فهؤلاء إذن لم يستحوا من سفك دماء أنبيائهم، فكيف يستحون من السخرية بالرسالات السماوية وبالرسل الذين جاءوا بها من بعد رسالات أنبيائهم، لكن الحقائق لا تخفى، والتاريخ يسجل، والعلم والإنصاف يفندان ما كتبه هؤلاء الحاقدون في حق خاتم النبيين وإمام المرسلين المصطفى الكريم محمد ﷺ ورسالته الخالدة.

وحينما يزول التعصب عن الأفكار وترفع الغشاوة عن الأبصار والحمية عن القلوب تُدرَك حقيقة الذات المحمدية؛ فتظهر كالشمس الساطعة، ولقد أدركها كثيرٌ من العلماء والفلاسفة والعباقرة؛ فأثنوا على رسول الإسلام ﷺ وعلى رسالته، وقالوا قولة الحق، وشهدوا بعظمته وعظمة رسالته، وفنّدوا أقوال بني جلدتهم، وها أنا أسوق لك أخي القارئ بعض ما جمعته من شهادات المنصفين على مر العصور.

- شهادة جورج برنارد شو 1856- 1950 وقد حصل على جائزة نوبل في الأدب:-

يقول:

لقد كنت دائمًا أحفظ لدين محمد عندي بأعلى التقدير، وذلك بسبب حيويته المدهشة، إنه الدين الذي يبدو لي أنه يمتلك القدرة على استيعاب تغير أطوار الحياة، بما يجعله محل إعجاب لكل العصور.

لقد درست محمدًا، ذلك الرجل العجيب، وفي رأيي أنه أبعد ما يكون عمن يسمى «ضد المسيح»، ويجب أن يسمى «منقذ الإنسانية».

إني أعتقد لو أن شخصًا مثله تولى الحكم المطلق للعالم المعاصر لنجح في حل مشاكله بطريقة تجلب له ما هو في أشد الحاجة إليه من سلام وسعادة.

لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولاً في أوروبا الغد، كما أنه بدأ يكون مقبولاً في أوروبا اليوم.

قال أيضًا:

إنَّ العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد، هذا النبي الذي وضع دينه دائمًا موضع الاحترام والإجلال، فإنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات، خالدًا خلود الأبد، وإني أرى كثيرًا من بني قومي قد دخلوا هذا الدين على بيِّنة، وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح في هذه القارة - يعني أوروبا - وإذا أراد العالم النجاة من شروره فعليه بهذا الدين، إنه دين السلام والتعاون والعدالة، في ظل شريعة ممتدة محكمة، لم تنسَ أمرًا من الدنيا إلا رسمته ووزنته بميزان لا يخطئ أبدًا، وقد ألَّفت كتابًا في محمد، ولكنه صودر لخروجه على تقاليد الإنجليز!

- شهادة الفيلسوف الروسي ليو تولستوي الروسي:

يقول هذا الفيلسوف في كتابه «حكم محمد»:

لا ريب أن النبي محمدًا من كبار عظماء الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع العالمي خدمة جليلة، ويكفيه فخرًا أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسكينة والسلام، وتفضل عيشة الزهد، وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية.

ويكفيه فخرًا أنه فتح لها طريق الرقي والتقدم والمدنية، وهذا عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة وحكمة وعلمًا، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال.

– شهادة الدكتورة الإيطالية لورا فيتشيا:

قالت:

قام أعداء الإسلام الألداء اللين أعماهم الحقد والتعصب، واتهموا رسول الله ﷺ ذلك الرجل النبيل الذي كان ينظر إليه قبل الرسالة نظرة إكبار وإجلال من جميع مواطنيه لما تحلى به من الأمانة والسجايا الكريمة، وكانت التهمة التي رموه بها مما لا يقبله عقل، ولا يمكن أن يسلم به عاقل، فضلاً عن أنها لا تقوم على أساس، وهي تهمة الغش والخداع!

وليت شعري، كيف أن هؤلاء الناس لم يسألوا أنفسهم إذ ذكر أن النبي في الحقيقة كاذبًا، فكيف اجترأ على أن يوجّه في القرآن إلى الكذابين والخادعين أشد عبارات اللم وأقساها؟! وكيف توعدهم بالنار وسوء العذاب؟! وإذا كان كاذبًا في دعوته – كما يفترون – فكيف صمد للمقاومة أكثر من عشر سنين، وهو في مكة احتمل في أثنائها الشيء الكثير من صنوف الاضطهاد والآلام، وهو ذلك الرجل الوديع الهادئ الطباع؟! وكيف تهيّأ له أن ينحاز إليه طواعيةً واختيارًا، بل وينتهي التحمس، جماعات كبيرة من رجالات قريش ونبلائهم، وأن ينضووا تحت لوائه مع غيرهم من السوقة والعبيد؟!

– شهادة هاملتون جب أستاذ الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة هرفارد الأمريكية:

يقول في كتابه «الإسلام إلى أين؟»:

لا يزال لدى الإسلام فضلٌ آخر يبذله من أجل قضية الإنسانية، فهو يقف على كلّ حال أقرب إلى الشرق أكثر من موقف أوروبا منه، كما أنه يمتلك تقاليد رائعة فيما يتعلق بالتفاهم والتعاون بين أجناس البشر، فلم يحرز أي مجتمع آخر – غير إسلامي – مثل هذا السجل من النجاح في التوحيد بين ذلك القدر الهائل والمتنوع من الأجناس البشرية بتحقيق المساواة أمام القانون وتكافؤ الفرص للجميع.

ولا يزال الإسلام قادرًا على تحقيق مصالحه بين عناصر الجنس البشري وتقاليدها التي تُستعصَى على التصالح، وإذا قدر أن يحل التعاون يومًا ما محل التعارض القائم بين المجتمعات الكبيرة في الشرق والغرب، فإن وساطة الإسلام تصبح شرطًا لا غنى عنه؛ إذ يكمن بين يديه – إلى حدٍّ كبير – حل المشكلة التي تواجه أوروبا في علاقتها بالشرق.

– شهادة آنا ماري شميل، وهي حائزة على جائزة السلام للناشرين الألمان:

وقد نُشر لها أكثر من ثمانين مجلدًا عن الإسلام والشرق، وتُرجمت كتاباتها إلى الإنجليزية والفرنسية والفارسية والتركية والأردية والعربية والأندونيسية، توفيت سنة 2003:

قالت:

إني أحب الإسلام، ولولا أني أحبه ما كتبت عنه أكثر من ثمانين كتابًا، وقد وجدت فيه دين تسامح وروحانية، وتوقفت كثيرًا عند كلمات القرآن: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256]، وقد قلت لمن وجهوا إلي النقد: إني أحب الرسول محمدا!

وفي رأيها أن التشهير بالإسلام والمسلمين في الغرب قضية لها جذور وعمق تاريخي فتقول:

الإساءة إلى الإسلام كانت شائعة في القرون الوسطى، ويظهر ذلك في الشعر الفرنسي من القرن الحادي عشر إلى القرن السابع عشر، كما يظهر في الأدب الإنجليزي والاسكتلندي، حتى إنهم حرفوا اسم النبي محمد، وهكذا لا شيء سلبي لم يلصقه الغربيون بالإسلام من القرن الثامن حتى القرن العاشر، وازدادت مع بداية الحروب الصليبية، وفي نوفمبر 1995 تحدث الكتاب الغربيون بفخر عن ذكرى مرور 900 سنة على انطلاق أول حملة صليبية، مما يدل على أن تلك الحقبة ما زالت حية في عقول الغربيين.

– شهادة الكاتبة البريطانية كارين أرمسترونج، وهي راهبة تركت الرهبنة:

تقول:

إنّ لدينا في الغرب تاريخًا طويلاً من العداء للإسلام، راسخ الجذور، ولم يعد يمنع الناس شيء عن مهاجمة هذا الدين، حتى لو كانوا لا يعرفون عنه أقل القليل.

وتقول:

إنّ الإسلام والغرب يشعركان في أمور كثيرة، والمسلمون عرفوا ذلك منذ زمن محمد ﷺ، إلا أن الغرب غير قادر على تقبل هذه الحقيقة، والمسلمون يشعرون أن حضارة الغرب امتهنت كرامتهم واحتقرتهم، ونحن في الغرب بحاجة إلى أن نخلص أنفسنا من بعض أحقادنا، ولعل شخص محمد ﷺ يكون مناسبًا للبدء، فقد كان ذا عبقرية تستعصَى على الإدراك، وأسس دينًا وحضارة للإسلام، ولفظ «الإسلام» ذو دلالة على السلام والوفاق مع سائر البشر.

– شهادة العالم الفلكي الفرنسي لابلابس:

قال:

إننا، وإن لم نعتقد بالأديان السماوية، ولكن دين محمد وشريعته مثالان اجتماعيان لحياة البشر، فنحن نعترف بأنه عظيم بدينه ومبدئه وعقليته، فلا محيص عن الأخذ بتعاليمه.

– شهادة المستشرق الفرنسي الدكتور وايل توفي 1889:

قال:

إن محمدًا يستحق كلّ إعجابنا وتقديرنا كمصلح عظيم، بل ويستحق أن يطلَق عليه أيضًا لقب «نبي»، ولا يصغى إلى أقوال المغرضين وآراء المتعصبين، فإن محمدًا عظيم في دينه وفي شخصيته، وكلُّ من تحامل على محمد فقد جهله وغمطه حقه.

– شهادة العالم لوزن الأستاذ في علوم الكيمياء والفلك، المتوفي سنة 1837:

قال في كتابه «الله في السماء» بعد أن تحدث عن بعثة الرسول ﷺ وشمائله:

... فرسول كهذا الرسول يُجدر باتباع رسالته والمبادرة إلى اعتناق دعوته؛ إذ إنها دعوة شريفة، قوامها معرفة الخالق والحثُّ على الخير والردع عن المنكر، بل كل ما جاء به يرمي إلى الصلاح والإصلاح، والصلاح أنشودة المؤمن، هذا هو الدين الذي أدعو إليه جميع النصارى.

– شهادة الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي:

قال في إحدى محاضراته:

إن الإسلام اليوم هو الدين الذي ما زال في حالة تقدم مستمر، وإن كان قد أصاب المسلمين الضعف في القرن الثامن في الأندلس، إلا أن الإسلام ما زال ينتشر في آسيا والهند وإندونيسيا، وفي أماكن أبعد مثل ماليزيا وبورما وتايلاند والصين وكوريا واليابان، وفي الفترة التي وقف فيها عبد الناصر في مواجهة الغرب حدث انحدار للاستعمار في أفريقيا، وتحرر كثيرٌ من الدول، وأصبحت القارة الأفريقية بأكملها في سبيلها لأن تكون قارة إسلامية، كما وصلت هذه الموجة أيضًا إلى الولايات المتحدة وآسيا الوسطى .. وهكذا فإن هناك صورة جديدة للإسلام بدأت في الظهور تكمل نهضته وتفتُّحه، حتى في البلاد التي تسودها الضغوط السوفيتية، وعندما تنفجر هذه

الآفاق سيظهر للعالم أن الإسلام حي يستطيع مواجهة تحديات القرن، كما استجاب في الماضي لمتطلبات عصور مجتمعات عديدة.

– شهادة دكتور الفلسفة الأمريكي هارون ماركوس تولي 1887:

قال في كتابه «حياة محمد نبي المسلمين»:

فقد كان محمد زعيمًا وقائدًا سياسيًّا بما في أسمى معاني الزعامة السياسية من معنى وسيادة، هذه كانت تتجلّى في أروع المظاهر التي عرفها بنو الإنسان، وخليق بي، وأنا في صدد الكلام عن الزعامة السياسية، أن أدحض فرية وأردّ بهتانًا لا يزالا عالقين في أذهان قاصري العقول، الذين لا يملكون ذرة من حصافة الرأي، وتلك الفرية وذلك البهتان هما ما يردّده أولئك الأغبياء الذين يزعمون ألا علاقة بين الدين والسياسة، وألا رابطة تربط أحدهما بالآخر، إن من الخطأ أن يظن ظانٌّ هذا.

– شهادة الأمريكي ستانلي بول في كتابه «أقوال محمد»:

قال:

كان محمد رءوفًا شفيقًا، يعود المريض، ويزور الفقير، ويجيب دعوات العبيد الأرقّاء، وقد كان يصلح ثيابه بيده، فهو إذن لا شك نبيٌّ مقدّس، نشأ كيتيم معوز حتى صار فاتحًا عظيمًا.

– شهادة المستشرق الأمريكي سنكس في كتابه «ديانة العرب»:

قال في مقدمة كتابه:

ظهر محمد بعد المسيح بخمسة قرون وسبعين سنة، وكانت وظيفته ترقية عقول البشر، بإشرافها الأصول الأولية للأخلاق الفاضلة، وبإرجاعها إلى الاعتقاد بإله واحد، بحياة بعد هذه الحياة.

إلى أن قال:

إن الفكرة الدينية الإسلامية أحدثت رقيًا كبيرًا جدًا في العالم، وخلّصت العقل الإنساني من قيوده الثقيلة التي كانت تأسره حول الهياكل بين يدي الكهان، ولقد توصّل محمد بمحوه كل صورة في المعابد وإبطاله كل تمثيل للذات الخالق المطلق إلى تخليص الفكر الإنساني من عقيدة التجسيد الغليظة.

– شهادة الأمريكي الدكتور بيرودج رئيس الجامعة الأمريكية في لبنان:

في حفل أقامه شباب الجامعة المسلمون بمناسبة المولد النبوي الشريف عام 1923، قال في الحفل، نقلاً عن مجلة «العرفان» المجلد الثالث والثلاثين، العدد السابع:

إنكم تجتمعون اليوم محتفلين بمولد مصلح عظيم، ألا وهو النبي محمد، فهل لكم أن تتشربوا من روح الإصلاح الذي يحمله محمد، فتخرجوا لإصلاح مجتمع ملؤه الجهل والاضطراب؟

شهادة السويسري المسيو حنا دا كنيرت:

قال في كتابه «محمد والإسلام»:

كلما ازداد الباحث تدقيقًا في الحقائق التاريخية الوثيقة المصادر فيما يخص الشمائل المحمدية أزداد احتقارًا لأعداء محمد – مثل ماركس، وبريدر وشليجل وغيرهم – الذين أشرعوا أسنّة الطعن في محمد قبل أن يعرفوه، ونسبوا إليه ما لا يجوز أن يُنسب إلى رجل حقير، فضلاً عن رجل كمحمد الذي يحدثنا التاريخ عنه أنه رجل عظيم.

– شهادة المؤرخ الإسباني الكبير الدكتور ريتي:

مستشرق إسباني له مقالات قيمة في أحوال العرب، وتاريخ خاص لسوريا ولبنان، قال فيه:

دين محمد قد أكد إذن من الساعة الأولى لظهوره – وفي حياة النبي – أنه عام، فإذا كان صالحًا لكل جنس كان صالحًا بالضرورة لكل عقل ولكل درجة من درجات الحرارة.

ثم قال:

إليك يا محمد، وأنا الخادم الحقير، أقدم إجلالي بخضوع وتكريم، إليك أطأطئ رأسي، إنك لنبي حقٌّ من الله، قوتك العظيمة كانت مستمدَّة من عالم الغيب الأزلي الأبدي.

– شهادة المستشرق الإيطالي المسيو ميخائيل أماري في كتابه «تاريخ المسلمين»:

قال:

لقد جاء محمد نبي المسلمين بدين إلى جزيرة العرب يصلح أن يكون دينًا لكل الأمم، لأنه دين كمال ورقي، دين دعة وثقافة، دين رعاية وعناية، ولا يسعنا أن ننقصه، وحسب محمد ثناء عليه أنه لم يساوم ولم يقبل المساومة لحظة واحدة في موضوع رسالته، على كثرة فنون المساومات، واشتداد المحن، وهو القائل: «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته».

عقيدة راسخة وثبات لا يقاس بالنظير، وهمَّة تركت العرب مَدينين لمحمد بن عبد الله؛ إذ تركهم أمة لها شأنها تحت الشمس في تاريخ البشر.

– شهادة الدكتور نيس الأندونيسي أستاذ الديانة المسيحية في جامعة برمنجهام:

قال في إحدى محاضراته نقلاً عن مجلة «الهلال» الجزء الخامس من المجلد الثالث:

يا بن مكة، يا نسل الأكرمين، يا معيد مجد الآباء والأجداد، ويا مخلّص العالم من العبودية، إنّ العالم يفتخر بك، ويشكر الله على تلك المنحة العزيزة، بل ويقدر مجهوداتك كلها، يا نسل الخليل إبراهيم، يا من منحت السلام للعالم، ووفّقت بين قلوب البشر، وجعلت الإخلاص شعارك، يا من قلت في شريعتك «إنما الأعمال بالنيات»، لك منا الشكر الجزيل.

رقم الإيداع: 2015/1597
الترقيم الدولي: 978-977-5714-67-1